

اتجاهات الفكر البغزاني الحديث والمعاصر

الأستاذ الدكتور محمد علي سبر الفزّاء

نبذة عن الكاتب

محمد علي عمر الفراء

- * أستاذ بقسم الجغرافيا - جامعة الكويت .
- * نشر العديد من الأبحاث في مختلف المجلات العلمية المتخصصة .
- * له كتب منشورة منها :
 - ١ - مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية .
 - ٢ - التنمية الاقتصادية في دولة الكويت .
 - ٣ - الطاقة : مصادرها العالمية ومكانة النفط العربي بينها .
 - ٤ - مشكلة انتاج الغذاء في الوطن العربي .
 - ٥ - علم الجغرافيا : دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شهدت الجغرافيا ولا تزال - تطورات هامة ، وتغيرات جذرية أثرت على اتجاهاتها وأهدافها ومسيرتها . وقد بدأت هذه التطورات منذ أن أرسى كل من همبولت وريتر قواعد الجغرافيا الحديثة وأصولها ، وارتقيا بها إلى مستوى العلم الاصولي المنظم والذي يبحث عن القوانين ويستمد بياناته من الطبيعة مباشرة ، وسلكا المنهج الاستقرائي الذي يتفق والمناهج العلمية المتبعة آنذلك . ومن بعد هذين العالمين ظهر العديد من الشخصيات الجغرافية التي تتلمذت أو تأثرت بهما وكان لها أكبر الفضل في طرح الكثير من المفاهيم والافكار الجغرافية الحديثة والمعاصرة .

وكان لمانيا قصب السبق في بلورة الافكار الجغرافية مما ساعد على نشوء اتجاهات واضحة قامت عليها مدارس فكرية أسهمت في انشاء الفكر الجغرافي وإثرائه . ومن المانيا بدأت تنتشر الافكار الجغرافية الحديثة إلى أنحاء العالم . وكانت فرنسا البلد المؤهل - بعد المانيا - لقيام مدرسة جغرافية واضحة المعالم ، استمدت أصولها من نشاط بعض الجغرافيين الفرنسيين الذين اشتغلوا بالمسائل الجغرافية ، وكذلك من تأثر نفر من الفرنسيين بالجغرافيين الالمان . فقد تتلمذ « اليزيه ركلس » على « ريتر » وتأثر بآرائه وافكاره حتى اطلق عليه البعض « ريتر » فرنسا .

أما المدرسة البريطانية فقد بدأت بالظهور منذ مطلع القرن الحالي مستندة على الافكار والمفاهيم الالمانية والفرنسية بصفة خاصة نظرا لتأثر مؤسسي الجغرافيا الحديثة في بريطانيا بآراء وافكار « فردريك لابلاي » و « فيدال دي لابلاش » في فرنسا ، و « راتزل » و « هنتر » في المانيا .

وانتقلت الافكار الجغرافية الحديثة إلى العالم الجديد - بخاصة الولايات المتحدة الامريكية . ونظرا لوحدة اللغة وتوفر عوامل الترابط القوي بين كل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، فقد وجدنا من الانسب دمجها في مدرسة فكرية واحدة اطلقنا عليها اسم المدرسة «الانجلو امريكية» وهي المدرسة التي تقود الفكر الجغرافي في ايامنا هذه بفضل الجهود التي بذلها جغرافيون في البلدين . ايضا لا ننسى مساهمة جامعة «لند» بالسويد والتي طورت الكثير من المفاهيم والافكار الجغرافية .

ولعل من أهم ملامح السمات المميزة للمدرسة الانجلو امريكية أنها أحدثت ، ثورة في المناهج . والاساليب المتبعة ، فقد سلكت الاسلوب الكمي ، وركزت على القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، واتبعت المنهج التطبيقي ، وعمقت التخصص حتى يتمكن الجغرافي من أن يصبح مختصا بموضوع محدد ، ومشكلة معينة بحيث يستطيع أداء خدمة لمجتمعه عن طريق الانتفاع بالعلم بالتطبيق العملي له .

ويعالج هذا البحث بشكل موجز وسريع نشأة الجغرافيا الحديثة وتطورها ، ويتتبع بداية نشوء المدارس الجغرافية الحديثة والمعاصرة . وأمل كبير في ان تتاح لي الفرصة في القريب لاستكمل الكثير من جوانب هذا البحث ، واخرجه على شكل كتاب مرجعي يسد فراغا في المكتبة العربية التي تشكو عجزا في هذا الجانب الفكري . والله أسأل التوفيق ،

المؤلف

الكويت في رمضان ١٤٠٢ هـ

الموافق ٢٣ يونيو ١٩٨٢ م

نشأة الجغرافيا الحديثة وتطورها

لاشك في أن الجغرافيا الحديثة مدينة في وجودها إلى العالمين الالمانيين الشهيرين «الكسندرفون همبولت» Alexander Von Humboldt (١٧٦٩-١٨٥٩) «وكارل ريتير» Carl Ritter (١٧٧٩-١٨٥٩). فقبلهما لم تكن الجغرافيا قد تحدت مفاهيمها ، أو اتضحت معالمها ، وبانت اهدافها ومراميها ، ذلك أن الغالبية العظمى من كتاب القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لم يحاولوا ، أو ربما لم يستطيعوا وضع مفهوم جغرافي ، يتضح من خلاله هدف يحدد معالم الطريق لكل مشغل في الحقل الجغرافي ، بحيث يمنعه من التعدي على حقوق غيره ، ويعصمه من التيه والضياغ ، بين مختلف الفروع العلمية ، ويمكنه من التخصص في زاوية من زوايا العلم ، فيصبح عمله مميزاً على غرار العلوم الاخرى . ويبدولنا أن الجغرافيين آنذاك ، ركزوا على المظاهر العملية للجغرافيا ، دون أن يحاولوا إيجاد مرتكزات نظرية ، وأسس فلسفية أو حتى اطر مفهومية ، تكون صالحة لعمليات تنظيرية يقوم عليها علم جغرافي له شخصيته المستقلة ، وهويته الواضحة ، وهدفه البين . ولم يكن الاهتمام بالجغرافيا - في تلك الفترة - بذاتها وإنما كان ينظر اليها على انها موضوع مساعد يُستعان بها في بعض امور الحياة كتفسير أحداث التاريخ ، وتحليل شخصياته ، على اعتبار ان الجغرافيا هي المسرح الذي تتفاعل فيه تلك الاحداث . وكثيراً ما استخدمت الجغرافيا - ولا تزال عند البعض تستخدم - في تفسير نشوء الامم ، والدول والامبراطوريات وتطورها ، ونموها ثم انكماشها وضعفها وتدهورها وسقوطها . واستغلت الظاهرات الجغرافية كثيراً في تفسير اسباب الغزوات والفتوحات والحروب او استخدمت في تفسير انتشار عقيدة من العقائد او مذهب من

المذاهب . وكان المفهوم الشائع لدى الناس - وربما لا يزال - ان الجغرافيا موضوع معرفي غير تخصصي يتناول وصف ظاهرات سطح الارض ، ويمدنا بالمعلومات عن العالم ومناطقه ، واقطاره وبلدانه . وهو بهذا المفهوم المعرفي يفيد الدول والحكومات الراغبة في التعاون مع غيرها ، او الطامعة فب خيرات الاقطار الاجنبية ومواردها ، او المتطلعة الى بسط نفوذها وسيطرتها خارج حدود رقعتها . وليس بمستغرب والحالة هذه أن يستخدم الجغرافيون من قبل غيرهم فوقعوا في المحذور ، واستغلوا في تحقيق اطماع كبار الساسة والحكام لمحاولاتهم تبني النظريات والافكار الاستعمارية والأطماع التوسعية والتفرقة العنصرية .

ويمكننا أن نطلق على هذا الاتجاه الذي سار فيه جغرافيو القرنين السابع عشر والثامن عشر بالاتجاه « النفعي » أو الانتفاعي Utilitarian Trend وإليه يعزى تخلف الجغرافيا وعدم تطورها ونموها وارتقائها كعلم مستقل له مناهجه وأهدافه .

ونود أن نوضح - باديء ذي بدء - بأننا لا نعارض الانتفاع بالعلم فلا خير في علم لا نفع فيه ولا منفعة من ورائه . العلم كما نعلم يهدف - فيما يهدف - الى تمكين الإنسان من فهم عالمه ، وكشف القوانين التي تفسر الكون وظاهراته وأحداثه . وهذا الفهم يساعد الإنسان على كيفية التعامل مع بيئته وعالمه ، وإستثمار ما فيه من موارد وإمكانات . كما يمكنه من اتقاء الأخطار الطبيعية ثم التحكم في الظاهرات والسيطرة عليها . وهذا هو غاية الجانب النفعي للعلم وهو نهاية المطاف . أما البداية فهي في العادة نظرية بحتة ، وفلسفية صرفة ، وتشتمل على المفاهيم والأهداف والمناهج التي تحدد المسيرة العملية والتي تبذلنا على شكل نفعي .

البحث عن الهدف

تشترك جميع العلوم في المنهج الذي تسلكه في التحري والبحث وكذلك في أدوات البحث ووسائله ، ولكنها تختلف في الأهداف والأغراض . ولعل أول خطوة خطاها الجغرافيون من أجل النهوض بالجغرافيا ورفع مستواها من مجرد موضوع معرفي ، مهمته خدمة العلوم الأخرى ، كانت محاولتهم وضع هدف يلتزمون به ، ويعطي الجغرافيا ذاتيتها ، ويثبت استقلالها ، ويرقي بها إلى مستوى العلم الأصولي . وكان العالم ممثلاً في حدوده الطبيعية أول هدف وضعته الجغرافيا لنفسها . فقد انصب إهتمام الجغرافيين على إيجاد الحدود الطبيعية للعالم ، ونبت الفكرة التي كانت شائعة آنذاك وهي التقسيم على أساس الوحدات السياسية نظراً لما يطرأ عليها من تغيرات سريعة ، ولكونها لا تستند على أسس علمية بقدر ما تعبر عن قوة الدول ونفوذها ، وإطماع الحكومات ، ونظرات الحكام التوسعية ، مما يجعل عمل الجغرافي محدود الفائدة ولا يدوم إلا لوقت قصير .

إلا أن أكبر مشكلة واجهت الجغرافيين آنذاك تمثلت في المقياس الذي يجب أن تركز عليه تلك الحدود الطبيعية . وقد تمكنوا من التغلب على المشكلة بعد ظهور نظرية « شبكة أنظمة الجبال المتصلة » «Continuous network of mountain systems» التي طورها في ألمانيا « جاتيرير » «Gatterer» في عامي (١٧٧٣ - ١٧٧٥) وجعلها أساساً صالحاً لتقسيم العالم إلى أقاليم طبيعية . (١)

وانحصر ميدان الدراسة الجغرافية - من الوجهة العلمية - منذ ذلك الوقت وحتى في عصر الفيلسوف « كانت » Kant ومن بعده « وهلمبي » Wilhelmi في سنة ١٨٢٠ في بعض ظاهرات سطح الأرض ، وبخاصة الطبيعية منها . إلا أن المفهوم الطبيعي للدراسة الجغرافية لم يكن ليستبعد الإنسان كما قد يظن البعض . كما أنه لم يكن مقابلاً للمفهوم البشري . فالفيلسوف « كانت » الذي شغل منصب استاذ

(1) Hartshorne , R., «The Nature of Geography» A.A.G., 1969, PP. 37 - 38

الجغرافيا الطبيعية بجامعة «كونجسبرج» «Konigsberg» في عام ١٧٥٦ أدخل الانسان كأحد الملامح التي يشملها سطح الارض^(١) . وزاد على ذلك بأن اعتبر الانسان أحد العوامل الخمسة الرئيسية التي تحدث الكثير من التغيرات على الارض . وبناء عليه يمكن اعتبار جغرافية «كانت» الطبيعية - من حيث المحتوى والغرض - غائية ، أي ان محور غاية الكون ملاءمته للانسان «Anthropocentric» . وهي وجهة نظر فلسفية تبناها فيما بعد «كارل ريتز» والذي قال بأن الكون خلق لاجل الانسان وتحقيق غايته .

ويبدو أن ملخص افكار الجغرافيين قبل «همبولت» و«ريتز» كانت تنصب على ضرورة الاهتمام بدراسة «كلية الوحدة» أي معالجة الوحدة من الناحية الكلية ، وابرار خصائصها وملامحها العامة ، ولكنهم اختلفوا في كيفية تحديد هذه الوحدة . وقد حاول بعضهم مثل «ليندனர்» Lindner في عام ١٨٠٦ ان يخرج عن هذا المفهوم حينما قال بأنه ينبغي على الجغرافيا الاهتمام بمسألة الـ «أين» «Where»^(٢)

(1) Ibid , P.40

(2) Ibid , P.48

الجغرافيا الحديثة

هيبولت وريتر:

ربما كان من أهم ما قام به كل من « هيبولت » و« ريتز » تطوير الافكار والمفاهيم النظرية الجغرافية التي كانت سائدة في أواخر القرن الثامن عشر وتحويلها الى حقائق . وكان منهجهما العلمي تجريبياً Empirical واستقرائياً Inductive . ويقرر هيبولت بأن المعرفة التجريبية مبنية على المشاهدة الفكرية للظاهرة التي تكشفها الحواس .

وكان « هيبولت » مهتماً بالعلاقات المكانية للظواهر الطبيعية (١) . وفي معالجته لبعض الظواهر الطبيعية كان يركز على توزيعها ومدى تأثيرها على التنظيم المكاني للظواهر الأخرى . وقد اعتبر « هيبولت » الانسان وأعماله من ضمن الطبيعة واقاليمةا ، ولكنه يرى بأنه ليس عاملاً له حتميته على الطبيعة . ويعتقد بأن المدن والقرى والحقول وما فيها من محاصيل عناصر يتألف منها اللاندسكيب « صورة الارض » إلا أنه لم يعترف أبداً بوجود لاندسكيب فريد . وقال بوجود علاقات عامة بين كل لاندسكيب وآخر ، وأن هناك قواسم مشتركة بينها جميعاً .

وعلى الرغم من اهتمام « هيبولت » بالجغرافيا العامة إلا أن ذلك لم يصرفه عن الاقليمية ، فقد اعتقد باعتماد الظواهر المكانية على بعضها البعض ، كما اعترف بالحاجة إلى تفسير أية مجموعة من الظواهر موزعة توزيعاً مكانياً بالنسبة الى محتواها الاقليمي . ولعلنا ندرك المنهج الجغرافي عند « هيبولت » من مقدمته لكتابه الشهير « الكون » Cosmos وفيه يقول (٢) :

(1) Dickinson, R.E., « The Makers of Modern Geography » Routledge and Kegan Paul, London, 1969, P.23.

(2) Ibid, P.29.

« إن الهدف الأهم لجميع العلوم الطبيعية هو معرفة الوحدة في محتواها المتباين Unity indiversity أو الوحدة في التباين . وكذلك ادراك جميع المظاهر الفردية كما تكشفها الابتكرات العلمية الحديثة . . . وايضاً معرفة جوهر الطبيعة المستتر تحت غطاء المظاهر الخارجية . إن هدف الفصل المدخلي من الكتاب الاشارة الى الاسلوب الذي من خلاله تنكشف جميع الظواهر والطاقات كوحدة واحدة لها شخصيتها المميزة ، والتي تنبض في داخلها بالحياة . ان الطبيعة ليست مادة ميتة ، إنها كما قال « شلنج » Schelling القوة المقدسة والأساسية . »

أما « ريتز » فكان منهجه مقارناً ويهدف الى إيجاد الارتباط بين التاريخ والطبيعة . وقد عرف الجغرافيا المقارنة Comparative Geography بقوله (١) :
« ان مفهوم الجغرافيا بمعنى وصف الارض أصبح لسوء الحظ امراً خاطئاً مما جعل الجغرافيا تضل طريقها . . . الجغرافيا ذلك الفرع من العلوم الذى يتناول الارض بجميع مظاهرها وظواهرها وروابطها كوحدة مستقلة . وهي تبين ارتباط هذا الكل الموحد مع الانسان ومع خالقه . »

وكانت أول مباديء « ريتز » التي حرص دوماً على ترديدها بأن الجغرافيا يجب أن تكون علماً تجريبياً أكثر من كونها علماً استدلالياً يستمد اصوله من الأسس العقلية ، ويعتمد على النظريات المسبقة . وفي هذا يقول بأن على الجغرافي « أن يباشر وينتقل من ملاحظة الى اخرى ، وليس من رأي أو فرضية ثم الى ملاحظة . ولهذا طالب بالكف عن كل المعالجات الجغرافية النظرية ، فعارض نظرية « شبكة انظمة الجبال المتصلة » سابقة الذكر .

وعلى الرغم من اقتناع « ريتز » بوجود قوانين تحكم علاقة الظواهرات البشرية بغير البشرية على سطح الارض ، إلا أنه لا يرى ضرورة التسرع في تأسيس مثل هذه القوانين . وبدلاً من ذلك شعر بأنه بالإمكان الكشف عن القوانين من خلال تجميع الحقائق وادراك ما بينها من روابط . ويؤكد على هذه النقطة بقوله :
« علينا ان نسأل الارض نفسها عن قوانينها » (٢) .

(1) Dickinson, R.E., op.cit., P.36

(2) Hartshorne, R., op.cit., p.55

وبناء عليه فقد كان « ريتز » أول من عارض ما كان يطلق عليه بالجغرافيا النظرية أو المكتبية arm chair geography والتي تعتمد على قراءة الكتب في المكتبة وعلى كرسي مريح ، ولا تتطلب الخروج الى الميدان ، وملاحظة الظواهر ، وهي تنبض بالحياة والنشاط .

ويعتبر « ريتز » الجغرافيا بأنها علم الارض الذي يصف الكرة الارضية ، من حيث انها مهد للانسان ، وهي كائن صنعت حتى في ادق تفاصيلها لغرض مقدس كي تلائم حاجات الانسان ، تماما شأنها شأن الجسد الذي خلق ليلائم الروح ، ولذلك فإن الارض صنعت للانسان . وهذه هي قمة الفلسفة الغائية Teleology .

ويرى « ريتز » بأن هدف الجغرافيا ليس مجرد تجميع البيانات وتصنيف الحقائق . وفي هذا يقول : (١) .

« ليس هدفي مجرد تجميع اكبر قدر من الحقائق وتصنيفها كي أتفوق بها على من سبقني ، ولكنني ابغي تتبع القوانين التي تخفي اسرار تباين الطبيعة ، ولأبين ارتباطها مع كل حقيقة تعالج بشكل منفرد ، ولأوضح على مسرح تاريخي صرف الوحدة الصحيحة ، والانسجام القائم في التباين الواضح ، والتقلب الذي يسود الكرة الارضية ، والذي يظهر مميزا في العلاقات المتبادلة بين الطبيعة والانسان » .

أوجه الالتقاء والاختلاف بين همبولت وريتز :

لقد ركز « همبولت » في كتاباته التي تندرج تحت موضوع الجغرافيا العامة على المظاهر غير البشرية وحصر نفسه في الأوجه الطبيعية . اما ريتز فاتخذ المظاهر غير البشرية لتساعده في دراساته الانسانية التي كانت مثار اهتمامه . وفي حين اهتم « همبولت » كثيرا بالجغرافيا العامة فإن الاقليمية كانت أكبر انجازات « ريتز » . ففي دراساته المنهجية أكد مراراً وتكراراً على أهمية التنظيم الاقليمي للجغرافيا .

(1) Dickinson, R.E., op.cit., p.37.

ويبدو أن الفصل بين الجغرافيا العامة ، والجغرافيا الخاصة أو الاقليمية كان بمثابة البداية لظهور الازدواجية ، والتي تمثلت فيما بعد على شكل نوعين من الجغرافيا هما : طبيعية وبشرية . ولا تزال تعاني منها الجغرافيا حتى يومنا هذا . لقد حاول الجغرافيون التغلب على الازدواجية الاولى - العامة والاقليمية - عن طريق حصر الجغرافيا في مظهر واحد فقط كأن يكون التوجه كليا إلى الدراسات العامة أو الانصراف كليا الى الدراسات الاقليمية . وكان لابد من أن يتخذ كل من «همبولت» و « ريتز » موقفا واضحا من هذه المسألة الهامة .

كان ميل « ريتز » كما قلنا نحو الاقليمية ، أما اهتماماته بالجغرافيا العامة فكانت قليلة ، بل أنه اعتبر بأن الدراسات العامة التي قام بها من سبقه من الجغرافيين والتي تقوم على الفصل الذاتي للظواهر الطبيعية المترابطة ، وتقسيمها الى رتب منفصلة ودراستها عالميا وعلى نحو مستقل ومنفصل بمثابة تدمير وتشويه للترابط الواقعي للطبيعة . وقد لاحظ بأنه عند دراسة كل نوع من انواع هذه الظواهر من حيث الشكل والإجراء Form and Process يصبح الأمر من اختصاص علوم أخرى أو جزءاً منها وليس ذلك من الجغرافيا في شيء .

لقد حاول « ريتز » أن يلفت الانتباه دائما الى ما كان يطلق عليه « الأنماط الرئيسية للتشكيل الطبيعي » ، ولذلك اتهمه البعض أمثال « فروبل » Frobel بإهماله أهمية الدراسات العامة للظواهر بشكل منفرد . إلا أننا نجد أحيانا عكس ذلك ، فهو يقول في بعض كتاباته « ينبغي قياس أعماق سطح الارض وارتفاعاتها ، وتنظيم اشكالها طبقا لخصائصها العامة » . وزيادة على ذلك فإنه في محاضراته التي ألقاها في أكاديمية العلوم ببرلين في الفترة ما بين عام ١٨٢٨ وعام ١٨٣٣ يجد المرء مناقشات كثيرة يركز فيها على ضرورة دراسة الظواهر على نحو منفرد لمعرفة مزاياها وخصائصها .

وعلى أية حال فإن هناك فكرتان أساسيتان تلازمان كتابات « ريتز » ؛ الاولى مفادها أن هدف الجغرافيا بحث وتفسير الاختلافات المكانية لسطح الأرض

(1) Hartshorne , R., op.cit., p.72.

طبيعياً وبشرياً . وهذا النوع من الدراسة لا يحلل الظواهر منفردة وبمعزل عن غيرها ولكن تبحثها وتفسرها من حيث ارتباطها مع التوزيعات المكانية الأخرى حتى تتوصل الى شرح التركيب المكاني وتصويره وتفسيره .

أما الفكرة الثانية فترتبط بالإنسان على اعتبار إنه مركز اهتمام الدراسات الجغرافية . ويمكننا القول بأن الفكرة الأولى مكانية طالما أنها تركز على تصوير المكان وشرح تركيبه ، بينما الثانية بيئية لأنها تدرس العلاقة بين البيئة والإنسان من الوجهة الغائية التي آمن بها « ريتز » .

إن تركيز « هببولت » على الجغرافيا العامة نابع - على ما يبدو - من إيمانه بوحدة الطبيعة . وهذه الوحدة تبدو من خلال الترابط العضوي لجميع ظواهر سطح الأرض . والجغرافي لا يدرس الظاهرة منفردة ومستقلة عن غيرها كما تفعل العلوم الأخرى وإنما يتناولها ككل يتفاعل مع غيره من الظواهر ويبحثها كأثر ومؤثر أي سبب ومسبب . وبذلك يكون « هببولت » قد ادخل السببية في الجغرافيا والتي انجبت الحتمية فيما بعد .

ولم يعارض « ريتز » وحدة الطبيعة بل أيدها ، وآمن بترابط الظواهر ولكن ضمن الإطار المكاني . وهذا الترابط هو ما يعطي كل منطقة من مناطق العالم فرديتها وشخصيتها الخاصة . ووجهة النظر هذه كانت نقطة البداية لمشكلة التفرد في الجغرافيا والتي عانت منها كثيرا . وكانت أهم العقبات التي حالت دون علمنة الجغرافيا لفترة طويلة من الزمن .

ومجمل القول ان منهج « هببولت » تحليلي بنائي ، أي يركز على تحليل الروابط بين مختلف الظواهر في حين « ريتز » قد اختط لنفسه منهجاً بنائياً تحليلياً Synthetic analytic approach يتمثل في البدء بوصف مكونات الأقليم وعناصره وينتهي بتحليل روابط ظواهره .

الفكر الجغرافي بعد همبولت وريتير :

تعرضت الجغرافيا بعد وفاة « همبولت » و « ريتير » في عام ١٨٥٩ الى الانتكاس . فالميدان أصبح من بعدهما خاليا على الرغم من وجود بعض تلاميذ « ريتير » الذين استطاعوا حمل افكاره أمثال ارنولد جويوت Arnold Guyot الذي شغل أول كرسي للجغرافيا بالولايات المتحدة الامريكية في جامعة برنستون الآ أن تأثيره كان محدوداً . وربما كان أنجح تلاميذ « ريتير » الجغرافي الفرنسي « اليزيه ركلس » Elisee Reclus .

ومن المحتمل أن تكون فترة ما بعد « همبولت » و « ريتير » حرجة للغاية في سلم تطور الميدان الجغرافي ذلك أن الأسس التي أرسى دعائمها هذان العالمان لم تؤد الى إيجاد ميدان موحد وواضح نظراً الى مبالغة من جاء بعدهما في بعض آرائهما أو محاولاتهم الاتيان بأفكار جديدة لطبيعة الجغرافيا . فبعد موت « ريتير » لم يخلفه أي استاذ للجغرافيا في أية جامعة المانية . وان الذين ملأوا الفراغ بعد ذلك لم يكونوا جغرافيين بل أن معظمهم كانوا جيولوجيين (١) . كما أن الجو العلمي الذي ساد النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان بعيدا عن تقبل الافكار الفلسفية التي كانت شائعة في العصر الرومانتيكي السابق والذي كانت أفكار كل من « همبولت » و « ريتير » منسجمة معه وأصبح الاتجاه العلمي الجديد يركز على عمل القوانين وتطورها ونموها .

ويعزى التحول الذي طرأ على الفكر الجغرافي في الاساس الى أعمال كل من « اوسكار بشل » Oscar Peschel ، و « فرديناند ريختهوفن » Ferdinand Richthofen . فقد بدأ حملة التحول هذه « بشل » بسلسلة من المقالات نشرها ابتداء من عام ١٨٦٦ . وقاد « بشل » الاتجاه الجديد ووجه تلاميذه من الجغرافيين الى دراسة مورفولوجية اشكال الأرض وظل طيلة حياته القصيرة يحصر نفسه في هذا

(١) حسن طه النجم . «دراسة في الفكر الجغرافي» ، عالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، يوليو اغسطس سبتمبر ١٩٧١ ، صفحة ١٢٦ .

القسم الطبيعي من الميدان الجغرافي . وكذلك اهتم بدراسة أثر اشكال سطح الأرض على التاريخ البشري (١) .

وقد ظل « بشل » طيلة عشرين عاماً الزعيم الأكاديمي في المانيا ، وقد عارض آراء كل من همبولت وريتر ، وخصص ما تبقى من حياته القصيرة في تنمية الفكر الجغرافي وتقدمه وكان آخر جغرافي عظيم قبل أن تتأثر الجغرافيا بالفلسفة الداروينية . واليه يعزى الفضل في إرساء القواعد الاساسية للجغرافيا الطبيعية الحديثة فكان يسير على المنهج المقارن الذي فسره من قبل ريتير مع محاولته لتفسير ملامح سطح الارض وتصنيف ظاهراته (٢) .

وقد انتقد « بشل » همبولت لأنه أعطى الانطباع بأن الجغرافيا العامة تعادل العلم الطبيعي كله . اما نقده لريتر فكان بسبب منهجه الغائي ، ولاخضاعه الجغرافيا للتاريخ . وربما كان « بشل » أول من اعترف صراحة بازدواجية الجغرافيا لأنه استبعد دراسة الانسان منها على الرغم من أنه خصص طاقاته العلمية وإمكاناته التدريسية لكل من الطبيعة والانسان . ففي الميدان الطبيعي كانت له مساهمات بارزة في دراسة الملامح الطبيعية لسطح الارض . وفي المجال البشري قام بعمل الكثير من التحريات الجادة عن أجناس البشر وثقافتهم . وقبل ذلك كانت له تحليلاته العلمانية التي تبحث في تاريخ الافكار الجغرافية حتى منتصف القرن التاسع عشر .

لقد انتقد « بشل » « ريتير » لعدم نجاحه في تطبيق منهجه في الجغرافيا الطبيعية ، وقال بأن الجغرافيا المقارنة يجب أن يكون لها منهج محدد وغرض واضح مثل المورفولوجيا المقارنة ، وعلى الجغرافي أن يبحث - مستعينا بالخرائط ذات المقياس الكبير - عن الملامح الطبيعية المتشابهة في اجزاء الارض المختلفة ويقارن خصائصها ويحلل اصلها ويحاول فهمها من الزاوية التطورية على نحو ما هو متبع في علم التشريح المقارن .

(1) James, P.E., «All possible Worlds: A History of Geographical Ideas» The Bobbs - Merrill Company, New York, 1972, P. 216.

(2) Dickinson, R.E., op.cit., p55.

وقد انتقد معالجة « ريتز » الغائية وادعى بأنها خارج ميدان الجغرافيا المقارنه ، واستبدلها بالدراسة المقارنة لاشكال الارض .

لقد أسس « بشل » الجغرافية الطبيعية في المانيا كعلم في حين أهملها ريتز . أما همبولت فلم يحاول تصنيف أشكال الارض . لقد بحث كل من همبولت وريتز في الارض ككل ، وانصبت تصنيفات ريتز على السطح فقط أما « بشل » فحاول أن يكشف عن التوزيعات ويصنفها ويفسر أصل الاشكال المحدده من الارض . ولعل فشل « بشل » في تطبيق منهج التشابه كان لعدم توفر المعلومات لديه عن عوامل التعرية (١).

وبعد وفاة « بشل » عن التاسعة والاربعين عاما حمل افكاره تلاميذه . وكان أبرزهم وأشهرهم « ريختهوفن » والذي تتلمذ عليه جغرافيون حملوا لواء الاتجاه الجديد عالمياً أمثال « بنك » Penck في المانيا و « وليم موريس ديفز » William Morris Davis في الولايات المتحدة الامريكية . ونتيجة لذلك ظلت الجيومورفولوجيا لفترة طويلة من الزمن الميدان الرئيسي للجغرافيا في كل من المانيا والولايات المتحدة .

وبفضل تأثير « بشل » وقيادته اتسع المحتوى الطبيعي للجغرافيا حتى غطى ميادين كانت من قبل تدخل في مجال علوم اخرى ، وشملت الجغرافيا جميع العلوم الطبيعية التي لها ارتباط بالارض . ومن ناحية اخرى فإن الجغرافيا البشرية - والتي كانت تدرس الاثنوجرافيا واستخدام الأراضي الزراعية والتجارة ، وتحركات الناس - فقد تناولها « ريختهوفن » من حيث علاقتها بأشكال سطح الارض في أبحاثه عن كاليفورنيا والصين . وكانت مثل هذه المواضيع تدرس غالباً ضمن الدراسات الجغرافية الاقليمية .

وربما كان من أهم نتائج هذا الاتجاه الجديد الالتباس الذي سبقت الإشارة اليه والمتمثل في الازدواجية : الجغرافيا العامة مقابل الجغرافيا الاقليمية ، والجغرافيا الطبيعية مقابل الجغرافيا البشرية . ومن الطبيعي أن يؤدي تقسيم الجغرافيا الى مجموعتين من الظاهرات : طبيعية وبشرية الى تيارين متناظرين كانت لهما آثار هامة

(1) Ibid, P.58.

يمكن تتبعها منذ «فردريش راتزل» Friedrich Ratzel (١٨٤٤ - ١٩٠٤)، ومن بعده تلميذته «ألن تشرتشل سمل» Ellen Churchill Semple، والتي كانت أحد مؤسسي المدرسة الجغرافية الأمريكية حيث ظهر «هارلان باروز» Harlan Barrows وأعلن في عام ١٩٢٣ بأن «محور الجغرافيا هو دراسة البيئة البشرية» Human ecology أي دراسة العلاقات التبادلية بين الإنسان وبيئته الطبيعية. وقد وجدت هذه الفكرة صدى واسعاً وترحيباً في بريطانيا واليابان وأمريكا.

لقد جاء رد الاعتبار للجغرافيا البشرية إذن في الأساس على يد «راتزل» والذي يعتبره كثير من الجغرافيين واضع الأسس العلمية للجغرافيا البشرية. وكانت دعوة «راتزل» كرد فعل لمغالاة بعض الجغرافيين وتعصبهم للجغرافيا الطبيعية حتى أن جغرافيا مشهوراً مثل «جورج جير لاند» George Gerland (١٨٣٣ - ١٩١٩) استبعد الإنسان كلياً من الدراسة الجغرافية. ولكن دعوته هذه لم تلق الاستجابة الكبيرة التي كان يتوقعها.

وظهر كتاب «راتزل» الشهير «الانثروبوجيوجرافي» Anthropogeography أي الجغرافيا البشرية في عام ١٨٨٢ والذي اعتبر حدثاً هاماً في تاريخ الجغرافيا. وكان له تأثير مباشر على التطور المنهجي للجغرافيا. فقد افاد الجغرافيا لنجاحه في الربط بين العلوم الطبيعية، ودراسة الإنسان من حيث اجناسه وسلالاته وأعماله (١).

وقد كان اهتمام راتزل في أول الأمر بالطبيعة حيث حصل على درجة الدكتوراه في علم الحيوان والجيولوجيا والتشريح المقارن. وحتى يكمل أبحاثه في علم الحيوان بجنوب فرنسا حاول أن يفتش عن وسيلة لزيادة المعونة المالية. وقرر أخيراً أن يرسل تحقيقات صحفية عن مشاهداته للمناطق التي يزورها وعلى أثرها عُرضت عليه وظيفة مراسل علمي لأحدى الصحف. وقد نصحه بعض اصدقائه استغلال هذه الفرصة كي يصبح جغرافياً. وبالفعل حول «راتزل» ميدان اهتمامه من متخصص في علم الحيوان الى جغرافي. وقد تم هذا التحول بعد ست سنوات من رحلاته التي

(١) ج. ر. كرون، «اعلام الجغرافية الحديثة» ترجمة شاكر خصبك، دار المعارف ١٩٦٤، صفحة ٧٤.

قضاها في أوروبا والولايات المتحدة والمكسيك . ويعتبر « راتزل » مثل « ريتز » في أن كل منهما أهمل خلفيته الطبيعية وركز على اهتماماته البشرية التي جاءت فيما بعد . وقد صدق « كارل ساور » Carl Sauer حين قال بأن « راتزل » دخل الجغرافيا عبر العمل الصحفي .

لقد كان غرض « راتزل » إرساء قواعد الجغرافيا البشرية على أسس علمية . ولعل أكبر مساهمة له هو ارتقائه بجغرافية الإنسان - الجغرافيا الحضارية - الى النظام العلمي ، وذلك بتنظيم الظواهر وتأسيس الأفكار وإيجاد الارتباطات الهامة للنتائج التي يمكن التوصل إليها .

ويتناول كتاب « الانثروبوجيوجرافي » لراتزل ثلاث قضايا هي^(١) :

- ١ - توزيع الإنسان على سطح الأرض وتصنيفه .
- ٢ - اعتماد التوزيع الجغرافي للجنس البشري على البيئة الطبيعية وكنتيجة للهجرات البشرية .
- ٣ - أثر البيئة الطبيعية على الأفراد والمجتمعات مثل تأثير المناخ على السلوك القومي .

وقد أعطى « راتزل » أهمية خاصة للهجرات البشرية من حيث مستوياتها وأسبابها واعتقد بأن لكل هجرة موطن وسبب ومسار ونهاية مطاف . وقال بأن هناك ثلاث مجموعات تحكم الإنسان وتؤثر على تطوره وهي ، المكان Lage والموقع ، والحيز Raum أي المنطقة وهي في اتساع مستمر حسب ميل الناس أو الدول ، ورغبتها نحو التوسع خارج مهدها الى ما يسمى بحدودها الطبيعية .

وأخيراً الحدود Rahmen التي تنتج عن توسع السكان المجاورين . وعلى هذه الامور قامت أفكار راتزل في الجغرافيا السياسية ونشرت لأول مره في عام ١٨٩٧ والتي تتمحور في أن الدولة عبارة عن تجمع مكاني خاص على سطح الأرض . واعتبر الدولة كمجموعة بشرية ذات تنظيم محدد ، وتوزيع للحياة على سطح

(1) Dickinson, R.E., op.cit., P.68.

الأرض . وبذلك فإن كل دولة عبارة عن قطعة بشرية وجزء من الأرض . ومن هذه الفكرة نشأ مفهوم المجال الجوي Lebensraum (١).

آمن راتزل بأن الدولة عبارة عن كائن عضوي مكاني تسعى للوصول الى حدودها الطبيعية وإذا لم تجد معارضة من قبل جيران اقوياء فإنها تتعدى حدودها . أن التوسع الجغرافي أو السياسي - بالنسبة لراتزل - له كل الخصائص المميزة للجسم المتحرك الذي يتمدد ، ويتقلص على التوالي في حالة التقدم والارتداد . وأن هدف هذه الحركة دائماً غزو الامكنة وفتحها من قبل الرعاة الرحل أو المزارعين المستقرين . والجماعات البشرية دوماً في تطور ضمن حدود الاطار الطبيعي وتسعى الى التوسع من النواة الصغيرة . وربما يزيد نطاق هذا التوسع فتحل موقعاً محدداً على الكرة الارضية . ونظاً لحاجة الجماعات البشرية الى العيش والحياة فإنها لا بد وأن ترتبط بمنطقة معلومة وذات حدود واضحة . وزيادة اعداد السكان تتسع هذه المنطقة الى أن تقابلها عوائق طبيعية أو بشرية . وهذه هي الحقائق الجغرافية الأساسية التي تحكم سلوك الدول وتقدمها .

وقد فحص « راتزل » دور المدينة كقوة باعثة لمناطق سياسية . وقال بأن التجارة والطرق هي بمثابة شرايين مترابطة للدولة . وتحاول كل دولة ان تجعل من نفسها وحدة جغرافية مترابطة . وقد طور راتزل أيضاً فكرة « ظهير الميناء » hinterland وصنفه الى خمسة أنواع من التكامل المكاني على النحو التالي : الظهير الطبيعي ، والظهير السياسي والتوزيع ، والظهير السوقي ، وظهير المنتجات وظهير المرور (٢) .

ويعتبر راتزل أول من صاغ بوضوح فكرة اللاندسكيپ الحضاري Cultural Landscape ، واعتبره لاندسكيپ تاريخي طالما أنه يسجل مراحل تاريخية متتابعة للاحتلال والاستيطان البشري (٣) . ولعل فكرة المجال الحيوي من أهم الافكار وانفعها في الجغرافيا الحديثة على الرغم من استغلال النازية لها في اوروبا من أجل التوسع في كثير من الاراضي الأوروبية مما أدى الى قيام الحرب العالمية الثانية .

(1) Ibid, P.69.

(2) Dickinson, R.E., op.cit., P.70.

(3) Ibid.

واذا كان « راتزل » قد اهتم بالانسان في الدراسات الجغرافية فإن ريختهوفن قد ركز على الظواهر الطبيعية ، وهو يرى بأن الجغرافيا تدرس اختلاف الظواهر التي تترابط سببياً في مناطق سطح الارض ، وأن الهدف الحقيقي للجغرافيا العامة فهم العلاقات السببية للظواهر في المناطق . ويميز ريختهوفن بين الدراستين بقوله بأن الاولى عبارة عن وصف غير تفسيري أو تحليلي « كوروجرافيا » Chorography هدفها مد الجغرافيا العامة وتزويدها بالمادة . اما الثانية فهي « كورولوجيا » Chorology وهي علم يبحث في العلاقات السببية بين الظواهر الخاصة بإقليم ما . وهي الخطوة النهائية لكونها دراسة تفسيرية تحليلية للاقاليم مبنية على الجغرافية العامة . والفرق بين الجغرافيا العامة والجغرافيا الاقليمية ليس فيما يدرس من مواد وانما الاختلاف يتضح من خلال منهج الدراسة .

ونظرا لعدم تجانس المواد التي تشكل المحتوى الجغرافي فإنها يجب أن تدرس في الجغرافيا العامة على نحو رتب أو مجموعات . ويرى ريختهوفن بأن هناك ثلاث مجموعات رئيسية لهذه المواد وهي :

الظواهر الطبيعية ، والظواهر الحيوية (البيولوجية) ، والظواهر البشرية . وعلى الرغم من أن الانسان كائن حي (بيولوجي) وبالإمكان - إلى حد ما - ادخاله ضمن دراسات الحيوانات الاخرى ، إلا أن حقيقة علاقاته بسطح الارض تحكمها عوامل عديدة لا تهم الحيوانات الاخرى مما يستدعي أن يدرس دراسة خاصة لكونه يشكل نمطا مميزا وقائما بذاته . وفي الدراسة الكورولوجية تتحد العلاقات السببية القائمة بين جميع تلك الرتب او مجموعات الظواهر على شكل دراسة موحدة .

ويرى « ريختهوفن » بأن موضوع الجغرافيا وميدانها سطح الارض هو الذي سد « ملأ » الفجوة التي كانت قائمة بين علمي الجيولوجيا والجغرافيا . ويمكننا تلخيص آرائه في الجغرافيا ومناهجها من خلال الخطاب الذي القاه عند تنصيبه لكرسي الاستاذية بجامعة « ليبزغ » بالمانيا في عام ١٨٨٣ (١) .

(1) Dickinson, R.E., op.cit., P.82.

فقد قال بأن الجغرافيا هي علم سطح الأرض والأشياء والظواهر المترابطة معها سببياً . والجغرافيا ليست علم الأرض فهو ميدان أشمل وأوسع اما السطح فأضيق . واعتبر بأن ملاحظة الظواهر يجب أن تكون في الميدان - اي على الطبيعة . ويمكن دراسة الجغرافيا بالاستفسارات والتحريات التفصيلية للمناطق الصغيرة وكذلك من خلال الدراسة المقارنة للمناطق الاكبر (١) . والاولى بنائية والثانية تحليلية .

ويحظى « ريختهوفن » بأهمية كبيرة وتقدير فائق لاسهامه البارز في الفكر الجغرافي الحديث ، مما يجعل البعض يضعه في مصاف همبولت وريتير . والواقع أنه جمع افضل ما في هذين العالمين من مزايا فقد سار على نهج همبولت حينما ركز على العمل الميداني واهتم به . ولكن يختلف عنه في أن « همبولت » انتهت أبحاثه بتأليف كتابه الشهير « الكون » Cosmos . أما ريختهوفن فقد حصر نفسه في دراسة سطح الأرض ، واتخذ من التدريس مهنة له في اواخر ايامه . ويختلف ريختهوفن عن « ريتير » في أنه لم يعتمد على كتابات ومشاهدات غيره على نحو ما فعل « ريتير » وانما حذا حذو همبولت في أنه بنى دراساته على رحلاته وزياراته لمختلف الاقطار . وبينما استطاع « ريتير » جذب انتباه المستمعين الى محاضراته العامة فقد كرس ريختهوفن جهده للتأثير على عدد محدود من الناس وهم الذين يهتمون بمثل تلك الدراسات ، وبذلك استطاع تدريب كثير من العلماء الشبان الذين حملوا رسالته ، في حين لم يتمكن « ريتير » من تكوين خلف له تكون له شخصية جغرافية يستطيع اكمال الرسالة من بعده أو حتى على الاقل حملها .

ومما لاشك فيه بأن أبحاث « ريختهوفن » ودراساته مهدت الطريق لمزيد من البحوث الاقليمية وكان الدكتور « ألفرد هتير » Alfred Hettner (١٨٥٩ - ١٩٤١) من اشهر الذين شجعوا مثل هذه البحوث . ويعتبر « هتير » من أبرز النقاد الذين اسهموا في تطور الجغرافيا . وكان الوحيد من بين ابناء جيله من الجغرافيين الذي دخل الجامعة حتى يصبح جغرافيا . وحصل على الدكتوراه في عام ١٨٨١ تحت اشراف استاذ « جيرلاند » الذي كان يعمل بجامعة ستراسبورغ (٢) .

(1) Ibid.

(2) Dickinson, R.E. op.cit., P.112.

قام « هنتر » برحلات واسعة في امريكا الجنوبية والشمالية وآسيا ، وعمل مع راتزل ولكنه لم يتأثر به لأنه اهتم بالاسس الطبيعية للجغرافيا اكثر منه . وكان له تأثير كبير على الفكر الجغرافي اذ تخرج على يديه ثلاثون شخصاً حصلوا تحت اشرافه على درجة الدكتوراة .

والى جانب اهتمام « هنتر » بالاقليمية والارتقاء بها ، فإن ذلك لم يمنعه من الالتفات نحو تطوير الجغرافيا العامة ، بل شجع على النوعين وهو يعتقد بأنه ليس بالامكان فصل الاقليمية عن العامة فصلاً دقيقاً . فمثلاً في حالة الدراسة الاقليمية لآيه منطقة كبيرة وواسعة نجد من الضروري دراسة الاختلافات التي تظهر في الملامح الجغرافية الفردية والجديرة بالاهتمام على نحو عام ، أي دراسة عامة اصولية . ومن ناحية اخرى فإن الدراسة الاصولية العامة لفئة معينة من المظاهر الجغرافية لا تتم بالرجوع الى هذه الفئة فقط ولكن الى جانب ذلك لابد من بحث علاقاتها المكانية (اقليميا) مع مظهر أو أكثر من المظاهر أي علاقاتها من حيث اختلاف كل منها بحسب وجودها في المناطق المختلفة ، وهذا في حد ذاته دراسة اقليمية .

ونظراً لتعصب الالمان الى لغتهم وعدم رضاهم عن استعمال كلمة غريبة كالجغرافيا فإنهم استعملوا كلمة Erdkunde كبديل لها حتى أن « ريتز » كثيراً ما استخدم هذه الكلمة كمفهوم بديل للجغرافيا مما أثار الالتباس عند البعض لأن المعنى الحرفي لكلمة Erdkunde علوم الارض . وبناء عليه فقد اطلق الجغرافيون الالمان في القرن التاسع عشر على الجغرافيا العامة Allgemeine Erdkunde ، وعلى الجغرافيا الاقليمية أو الخاصة Landerkunde ، ولكن ذلك جعل الفجوة بين هذين النوعين من الدراسات تزداد اتساعاً . لأن اصطلاح Allgemeine Erdkunde معناه « علوم الارض العامة » . وبذلك فهو يعطي تعبيراً مخالفاً عن كلمة جغرافيا المتعارف عليها . وبناء عليه فاننا اذا اخذنا المعنى الحرفي للاصطلاح الالمانى فإن ميدان الدراسة الجغرافية سيتسع ويتعدى السطح ويشمل الارض كلها . وما يؤكد وجهة نظرنا هذه أن جغرافياً المانيا مثل « جيرلاند » « Gerland » الذي تتلمذ عليه « هنتر » بنى هذا

المفهوم وقال بأن الجغرافيا دارسة الارض (١) . ونتيجة لذلك شعر هتتر بأن الجغرافيين تأثروا بالدراسات العامة واهتموا بها على حساب الاقليمية . وقد حذر من المبالغة في مفهوم العلاقات المكانية الذي سار عليه « راتزل » ، وأكد على ضرورة عدم اهمال موضوع الاختلاف والتباين في محتوى المناطق . وفي اعتقاده أن الجغرافيا هي دراسة الاختلافات المكانية . وهذا المفهوم تعرض لكثير من النقد على اعتبار أنه لا يساعد على انشاء أواقامة علم جغرافي واضح ومستقل ما دامت هناك علوم أخرى تهتم بدراسة الاختلافات في المناطق .

وقبل أن نترك هذه الفترة من اواخر القرن التاسع عشر والحافلة بالنقاش والجدل علينا أن نبين بعض خصائص الجغرافيا في المرحلة الكلاسيكية وقبل الكلاسيكية . ولعل اهم هذه النقاط وأبرزها كانت فكرة الوحدة في الجغرافيا والتي دعا اليها كل من همبولت وريتر . وفي رأي ريتر بأن الارض « كل عضوي » « organic whole » . وقد ردد « راتزل » هذه الفكرة في عدة مناسبات وتقبلها الجغرافي الفرنسي الشهير «فيدال دي لابلاش» « Vidal de la Blache » . وعلى ما يبدو فإن كثيرا من الجغرافيين الالماني لم يتحمسوا لها كثيرا . فمثلا نجد أن « جيرلاند » يعارضها قائلا بأن الارض ليست عضوا او حتى نظاما ، ولكنها عبارة عن تركيب من المادة الكونية شأنها في ذلك شأن ملايين الوحدات الكونية الاخرى . وهي مركب من المواد في حالة تغير ومرتبطة ببعضها ومتصلة اتصال مترابط بقوى عديدة ومتنوعة حتى تشكل الوحدة الكل ، على الرغم من أنها تتأثر بعوامل خارجية وبخاصة من الشمس . ولذلك فإن موضوع الجغرافيا وهدفها دراسة العلاقات المتبادلة لهذه القوى والتغيرات الناتجة في المواد الارضية (٢).

ويرى «جيرلاند» بأن الجغرافيا علماً ما في ذلك شك . وإن العلم هو المنطق الدقيق للعلم الطبيعي ، ولذلك فإنه يتطلب استدلالات محددة وقوانين مؤكده . أما الجغرافيا البشرية التي تتعامل مع الامكانيات فليست علماً . واذا تتبعنا مفهوم

(1) Hartshorne, R. op.cit., P.109.

(2) Hartshorne, R. op.cit., P.109.

«جيرلاند» هذا فإن الجغرافيا كموضوع يكون من اختصاصها دراسة الارض بحيث تشمل كل ما كانت تدرسه الجغرافيا وكذلك الفيزياء وربما الجيولوجيا . ولكن هل الارض بكاملها هي الميدان الحقيقي للدراسات الجغرافية كما تدل عليها كلمة جغرافيا ؟ . إن معظم المناقشات المنهجية قبل «ريختهوفن» تركز على أن الارض كلها كانت ميدانا للدراسة الجغرافية . ولكن وعلى الرغم من ذلك فإن الابحاث والدراسات الحقيقية لغالبية الجغرافيين آنذاك كانت محصورة بالفعل في القشرة الرقيقة من سطح الارض . وبناء عليه فإن الجغرافيا من الناحية التطبيقية كانت دراسة العالم كما يظهر على سطح الارض . وقد دافع «ريختهوفن» كثيرا عن ضرورة حصر ميدان الجغرافيا في سطح الارض وعدم تعديده والخروج عنه (١) .

واذا اعتبرنا أن المجال الطبيعي للجغرافيا هو سطح الارض فليس هناك ضرورة لتحديده تحديداً دقيقاً نظراً لتداخل طبقات الارض واغلفتها . و سطح الارض اشبه بالمرشح بالنسبة للدراسة الجغرافية ولغيرها من الدراسات ، اذ تلقي عليه جميع العلوم التي تهتم بالارض مثل المتيورولوجيا (الاحوال الجوية) ، والجيولوجيا والجيوفيزياء والجغرافيا والاقتصاد . . . الخ . وكل علم من هذه العلوم يهتم بـ سطح الارض من زاوية معينة .

من كل هذا نخلص الى القول بأن الجغرافيين الالمان في أواخر القرن التاسع عشر ركزوا في بحوثهم وكتاباتهم الجغرافية على مفهوم العلاقات المتبادلة للظواهر المختلفة في المناطق . وقد أكد «هنتر» كغيره من الجغرافيين على أهمية الجغرافية الاقليمية ليس فقط من أجل إبراز بعض خصائص المنطقة ولكن كي تتحدد الخصائص الكلية عن طريق ارتباط العلاقات المتبادلة لجميع المظاهر الهامة . وما دام الاهتمام كان منصباً على مسألة العلاقات المتبادلة فإن المرء يكاد لا يجد خلال تلك الفترة فكرة الشخصية المنفردة للاقليم على اعتبار أنه يشكل ما يسمى بالوحدة الكل أو مفهوم العضوية Organism فكل المفهومين : الوحدة Unity والكلية

(١)-Ibid.

Wholeness أسترجعا وظهرما من جديد في بداية القرن العشرين ، وبخاصة منذ الحرب العالمية الاولى . وهذا يدل على أن الجغرافيين آنذاك عادوا الى أفكار «ريتر» .

وبوجه عام فإنه يمكننا القول بأنه نتيجة لتأثير تطور العلوم الطبيعية المتخصصة في النصف الاخير من القرن التاسع عشر بدت الجغرافيا - لبعض الوقت - وكأنها قد تغيرت الى ميدان مختلف تماما من حيث الخصائص عن تلك التي كانت في عهد همبولت وريتر . فالتأكيد على الدراسات العامة شطر الجغرافيا الى شطرين أحدهما : علم طبيعي والثاني علم اجتماعي . ولكن بنهاية هذه الفترة كانت ردة الفعل قد ظهرت . وببداية القرن العشرين عادت الجغرافيا من حيث المنهج والمحتوى الى افكار همبولت .

إن عملية فصل الجغرافيا الى دراسة طبيعية واخرى بشرية ادت الى ظهور ما يسمى بالازدواجية (١) وهي من أهم المشاكل التي واجهتها - ولا تزال تواجهها - الجغرافيا وكثير فيها الجدل والنقاش ولذلك فلا بد لنا من بحث هذه المسألة الهامة .

(1) Kish, G.(ed.), « A source Book in Geography », Harvard University Press, 1978, PP. 429 - 430.

الازدواجية في الجغرافيا

سبق أن قلنا بأن الجغرافيا تعرضت للانتكاس بعد « همبولت » و « ريتير » . ولعل من اهم مظاهر هذا الانتكاس ظهور فكرة الازدواجية ، أي فصل الظواهر الطبيعية عن الظواهر البشرية . وقد ركز الجغرافيون بعد « همبولت » و « ريتير » على دراسة الظواهر الطبيعية . وبلغت المغالاة ببعضهم مثل « جيرلاند » الى درجة استبعاد كل الظواهر البشرية من الدراسة الجغرافية . أما راتزل فقد اهتم بالانسان وظواهره . وبذلك ظهر لدينا لونا من الدراسة الجغرافية هما : الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية . وبمرور الايام زاد الانقسام واتسعت شقة الخلاف حتى كاد أن يصبح لكل قسم مناهجه واساليبه واهدافه مما هدد وحدة العلم وضياح شخصيته المستقلة . ومن الغريب أن ينادى بعض الجغرافيين الى ضم الجغرافيا لمجموعة علوم الأرض وبخاصة الجيولوجيا ، في حين يطالب الفريق الآخر بضم الجغرافيا الى مجموعة العلوم الاجتماعية . واننا نجد في الوقت الحاضر تقسيم الفروع الجغرافية في كثير من الجامعات الاجنبية بحيث يتبع بعضها كلية العلوم ، والبعض الآخر الى كلية الآداب . وهناك فروع اخرى تتبع العلوم الاجتماعية . إن سبب هذا كله ناجم ولا شك عن عملية فصل العوامل والظواهر الطبيعية عن المظاهر البشرية فإلى أي حد ينطبق هذا على الواقع ؟

إن التمييز بين المظاهر او العوامل الطبيعية والبشرية غير عملي على الاطلاق ، وإنما هوشىء نظري ، فالعوامل الطبيعية ترتبط بلاشك بالاندسكيب الطبيعي او البكر ، اي قبل وجود الانسان وظهوره على اديم سطح الارض وتكاثره وانتشاره على اللاندسكيب الطبيعي أو البري . وبظهور الانسان وانتشاره بدأ يغير

من معالم سطح الأرض مما جعل فكرة اللاندسكيب الطبيعي في الوقت الحاضر فكرة نظرية صرفة ولا وجود لها في الحقيقة والواقع (١) .

إن عملية الفصل والتمييز بين كل من العوامل الطبيعية والعوامل البشرية تولد الكثير من المشاكل والمعوقات علاوة على كونها غير عملية . اذ ليس من السهل فصل جميع العوامل في أية وحدة مكانية نظراً للتداخل والتشابك الشديد فيما بينها ، كما إنه ليس بالامكان فصل العوامل الطبيعية عن العوامل البشرية كأن نفصل بين النبات الطبيعي والتربة ، وبين النقل والممرات المائية ، والبنية الحضرية وأشكال الأرض التي تقوم عليها .

إن المظاهر التي نعتقد بأنها طبيعية بعد الفحص والتدقيق ليست كذلك وإنما تكون نتاج كل من الطبيعة والانسان معاً . وبالمثل فإن المظاهر التي قد تبدولنا بأنها بشرية ما هي إلا نتيجة تفاعل عوامل بشرية وطبيعية . ولذلك فإنه ليس من الحكمة في شيء تقسيم الدراسة الى عوامل طبيعية واخرى بشرية طالما أن الفصل بينهما يكاد يكون مستحيلاً ، كما أنه ولنفس السبب لا يمكن للدراسة أن تقوم على أساس العلاقة أو التفاعل القائم بين العوامل دون فصلها الى عوامل طبيعية واخرى بشرية .

أن الجغرافيين الذين يركزون في دراساتهم وابحاثهم على المظاهر الطبيعية ويهملون الانسان وآثاره شأنهم في ذلك شأن من يصف شيئاً لا وجود له في الحقيقة والواقع ، وإنما يعود الى الماضي البعيد قبل أن تظهر مؤثرات الانسان على سطح هذا الكوكب . ولا يمكننا دراسة المظاهر الطبيعية بمعزل عن الطبيعة فالانسان على حد قول «ريتر» من الأرض . وكل عمل مادي يقوم به الانسان مهما كان نوعه او شكله - بيتاً او مزرعة او مدينة . . . الخ - ما هو إلا عنصر من العناصر المكونة للبيئة الطبيعية والحضرية . والانسان كما يقول «هنتر» لا يمكن فصله عن الطبيعة فهو جزء هام من الوحدة المركبة والمكونة لخصائص المكان (٢) . وكما قال هربرتسون في عام «١٩١٦» لا

(1) Chorley, R.J. and Haggett, P. (eds.) «Frontiers in Geographical Teaching» Methuen and Co LTD., London 1970, PP. 124 - 128.

(2) Hasthorpe, R., «Perspective on the Nature of Geography» John Murray, London, 1960, P.51

يمكن دراسة اي قطر مسكون بمعزل عن سكانه . . . ان فصل هذا الكل [القطر] الى انسان وبيئة عمل خاطيء . ويردد فيدال دي لا بلاش نفس الفكرة بقوله أن الجغرافيا البشرية ينبغي ان لا تتعارض مع الجغرافيا الطبيعية فمثل هذا الفصل لا وجود له إلا في عقول الاختصاصيين « (١) .

ولكن قد يتساءل المرء عن كيفية حدوث مثل هذه الازدواجية وظهور مفهوم الجغرافيا الطبيعية وما يقابله من جغرافيا بشرية . وعلى ما يبدو فإن مفهوم الجغرافيا الطبيعية قديم وله اسسه وجذوره فهو يعود الى ايام « فارينوس » Varenius (١٦٢٢ - ١٦٥٠) . وقد استخدم الفيلسوف « كانت » Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) نفس المفهوم وكذلك همبولت . ولكن مفهوم الجغرافيا الطبيعية عند هؤلاء يختلف عما هو عند الجغرافيين الذين جاءوا من بعدهم . وقد بين همبولت في كتاباته بأن كلمة « طبيعي » Physical استخدمت لايجاد علم له قوانين مثل الفيزياء . وإن جغرافية الطبيعة كانت تقابل الجغرافيا العامة لفارينوس والتي نسميها اليوم بالجغرافيا المنهجية Systematic Geography وقال بأن « المشكلة الكبرى للجغرافيا الطبيعية - استخدم مصطلح فيزياء العالم - تحديد قوانين العلاقات والروابط الابدية التي تربط ظاهرات الحياة بظاهرات الطبيعة غير الحية » (٢) .

وبطبيعة الحال فإن الجغرافيا الطبيعية بالنسبة الى كل من « كانت » و « همبولت » تشمل الانسان باعتباره ليس عاملاً ثانوياً وإنما هو الاساس في وحدة الطبيعة . وكانت الكتب التي تحمل اسم « الجغرافيا الطبيعية » تعالج أجناس الانسان الى جانب مختلف الظاهرات الطبيعية . وبعد همبولت حذفت الجوانب البشرية من الجغرافيا الطبيعية . وبمضي الزمن انقسمت الجغرافيا الطبيعية هي الاخرى بعد أن انفصلت عنها الظاهرات البيولوجية (الحيوية) . واصبحت الجغرافيا الطبيعية تدرس الظاهرات غير العضوية، في حين ان الجغرافيا البيولوجية (الحيوية) صارت تدرس الظاهرات البيولوجية (جغرافية الاشياء الحية كالنبات والحيوان) .

(1) De la Blache, P.v., «Principles of Human Geography» Constable Publishers, London 1965, P.3.

(2) Hartshorne, R., «Perspective on the Nature of Geography» op.cit., PP.67 -68.

إن اساس الازدواجية ونشأتها ترتبط بالمفهوم البيئي الذي تقبله الجغرافيون وتحمسوا له وبموجبه فصلوا بين كل ما هو بشري وطبيعي . وعلى الرغم من أن كثيرا من الجغرافيين تخلوا عن المفهوم البيئي فيما بعد إلا أن آثارها لاتزال عالقة في الأذهان . فبمقتضى المفهوم البيئي كانت الجغرافيا - ولاتزال عند البعض - تدرس العلاقات بين الانسان والبيئة الطبيعية على اعتبار أن مثل هذه الدراسة تسعى الى عَلمنة الجغرافيا لانها ترمي الى البحث عن القوانين التي تفسر الظاهرات البشرية كما هو الحال في قوانين الظاهرات الطبيعية . وبناء عليه كانت مهمة الجغرافيا دراسة البيئة الطبيعية للانسان . والمفهوم البيئي قديم وحديث له ارتباط بمسألة الحتمية . ونظرا لاهميته فإن من الانسب تناوله بشيء من الشرح والتحليل .

البيئة والحتمية

Environmentalism and Determinism

نشأ المفهوم البيئي - كما قلنا - نتيجة الفصل بين الظواهر الطبيعية المكونة للبيئة الطبيعية ، وبين الظواهر البشرية التي هي من صنع الانسان او حصيلة تأثيره على مختلف ظواهر سطح الارض . وبموجب هذا المفهوم انصب اهتمام الجغرافيين على دراسة العلاقة بين الانسان وبيئته الطبيعية الا انهم اختلفوا في نوعية هذه العلاقة وشكلها . فالبعض بالغ في دور البيئة الطبيعية وقال بتأثيرها الشديد في الانسان ، وآمن بحتميتها في كل فعل من افعال الانسان ولذلك اطلق على اصحاب هذا الاتجاه بالاحتميين Deterministics . والحتمية قديمة وحديثة في آن واحد فهي ترجع الى الاغريق الذين قالوا بسيطرة البيئة في سلوك الانسان وافعاله وحتى في شكله وخلقه . فعلى سبيل المثال نجد أن «هيبوقراط» Hippocrates (٤٢٠ ق . م) - والذي يسميه العرب «ابوقراط» وهو صاحب القسم الطبي الشهير اعتقد بحتمية البيئة الطبيعية من خلال تأثير الاهوية والمياه والاماكن في الانسان . ومن بعد «هيبوقراط» حمل لواء الحتمية مفكرون وفلاسفة من الاغريق والرومان امثال ارسطو واسترابو ومن جاء بعدهم من مفكري العصر الوسيط والحديث امثال «بودان» Bodin ومونتسكيو Montesquieu وغيره من اصحاب الفكر والقلم والذين يطول الكلام عنهم مما قد يخرجنا عن نطاق موضوعنا الذي يعالج المفهوم البيئي والحتمي منذ عهد هببولت وريتزل للذان ارسيا اسس الجغرافيا الحديثة .

(١) جورج تانهام . «حتمية البيئة والامكانية» في «جريفث تيلور (محرر) الجغرافية في القرن العشرين (مترجم) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ، صفحة ١٧٥ .

ربما كانت لآراء «ريتر» عن الانسان أثر في بداية ظهور الحتمية في الفكر الجغرافي على الرغم من أنه في دراساته كان يحرص دوماً على التوازن بين الانسان والطبيعة فهو يعتقد بالتأثير المتبادل لكل منهما . ولكن البعض ينسب اليه اعتقاده بتأثير البيئة على الصفات الطبيعية للانسان حينما ربط بين العيون عند التركمانيين وبين البيئة الصحراوية التي يعيشون فيها (١) .

اما همبولت فقد اعتقد بتأثير البيئة في الانسان وناقش المسألة مناقشة علمية وموضوعية مستشهدا بتأثير البحر المتوسط في ظهور قوة الفينقيين وفي الشعوب الاغريقية إلا انه قال بأن البيئة ليست المؤثر الوحيد على الانسان وسلوكه وأفعاله فهناك مؤثرات بشرية ينبغي عدم اهمالها . فالسواء الصافية في شبة الجزيرة العربية - مثلاً - هيأت المجال للعرب للاهتمام بالنجوم واشتغالهم بالفلك ، إلا أن هناك مناطق وبيئات مشابهة لشبه جزيرة العرب لم يهتم سكانها بالنجوم ولا بالفلك مما يدل على أن العرب تأثروا بعوامل بشرية مثل اتصالهم واحتكاكهم بالكلدانيين والهنود الذين اشتهروا بالفلك (٢)

وعلى اية حال فإن اقوال كل من ريتر وهمبولت لا تنهض كدليل ندعي بموجبه انهما كانا من انصار الحتمية ومؤيديها وانما حاولا فقط أن يلفتا الانتباه الى التأثير المتبادل بين الانسان وبيئته « فريتر » اراد أن يبرز دور الانسان واهميته . اما همبولت فركز على الظواهر الطبيعية معتبرا الانسان عنصرا أساسيا وهاما في البيئة الطبيعية ولم يحاول أن يفصل بين الانسان والبيئة .

ويبدو أن الحتمية الجغرافية بمفهومها الواسع دخلت الجغرافيا نتيجة تأثرها بالعلوم البيولوجية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبخاصة حينما طلع علينا «دارون» بنظريته الشهيرة عن التطور .

أن كثيرا من العمل الجغرافي في المائة سنة الماضية استمد افكاره بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من البيولوجيين وعلى رأسهم «دارون» وتلاميذه مثل «هوكر»

١ - جورج تانهام المرجع نفسه صفحة ١٨٠ - ١٨٢ .

٢ - المرجع نفسه صفحة ١٨٠ - ١٨٢ .

Hooker و «الاس» Wallace و «هكسلي» Huxley و «بيتس» Bates جميعهم اهتم اهتماماً كبيراً بعملية الارتياح الجغرافي حتى ان دارون نفسه استوحى نظريته من جولاته ورحلاته على ظهر السفينة «بيجل» Beagle حيث شاهد التوزيع الجغرافي للظواهرات في المكان (١) .

وقد فسر الجغرافيون «الداروينية» على انها التطور بمعنى عملية التغير المستمر في المنظور الزمني والذي قد يطول لدرجة كافية بحيث تسمح بإنتاج سلاسل من التحولات . ومن هذا المنطلق وعلى ضوء هذا المفهوم رحب كثير من علماء الطبيعة والاجتماع بفكرة التطور منذ عام ١٨٦٠ وما بعده . وكان دارون مهتم في الاساس بميكانيكية التغير . وقد ركز على عملية حفظ الاجناس القادرة على التحدى والصراع من اجل الحياة والبقاء . وهذا النوع من الصراع فسره الجغرافيون من منظور حتمي . فدارون قال بوجود علاقات متبادلة بين جميع الكائنات الحية وبيئاتها . وهذا القول طوره عالم الاحياء السويسري «ارنست هيكل» Haekel في علمه الجديد الذي اطلق عليه «علم التبيؤ» او الايكولوجيا Ecology بمعنى تكيف الكائنات الحية وبخاصة النباتية مع بيئاتها . يقول دارون في الفصل الثالث من كتابه عن أصل الانواع (٢) . « إن العلاقات المتبادلة بين جميع الكائنات الحية مع بعضها البعض ومع ظروف الحياة الطبيعية معقدة وغير محدودة » .

وفقاً لنظرية دارون فإن الحياة تطورت من كائنات بسيطة جداً مكونة من خلية واحدة فقط ، فمن الاميبا الى اشكال لاحصر لها من الحياة وصلت في نهاية المطاف الى الانسان تحت تأثير الانتخاب بفعل القوى الطبيعية ، ولم يكن امام الجغرافيين وغيرهم من العلماء إلا ان يقرروا القوانين الطبيعية في تشكيل الانسان وتنوع سلالاته .

وجاء عالم الاحياء السويسري ارنست هيكل ووضع الاساس لعلم جديد اطلق عليه «ايكولوجيا» أي علم العلاقات بين جميع الكائنات الحية التي تعيش مع

(1) Stoddart, D.R., «Darwin's Impact on Geography» in Davies, W.K.D. (ed.), «The Conceptual Revolution in Geography» University of London Press, London, 1972, P.52

(2) Ibid, P.53.

بعضها من ناحية وفي نفس المكان ، وتكيفها مع الاجواء التي تحيط بها (١) .
وتأثر راتزل بأفكار استاذة هيكل والذي ألف كتابا في الجغرافيا البشرية
اطلق عليه Anthropogeography حيث تناول بالشرح والتحليل العلاقة بين البيئة
والانسان ومدى تأثر الانسان بما يحيط به من عناصر البيئة الطبيعية ، وجاءت « ألن
تشرشل سمبل » Ellen Semple تلميذة راتزل لتبالغ في آراء استاذها فتؤكد على
تأثير البيئة على الانسان وحتميتها والفت كتابها في عام ١٩١١ « مؤثرات البيئة
الجغرافية » « Influences of Geographic Environment » . وفيه تطرقت « سمبل » في
ارائها الحتمية حيث قالت (٢) .

« الانسان نتاج سطح الارض وليس معنى هذا أنه مجرد ابن الارض وجزء
من ترابها ولكن معناه أن الارض أرضعته وغذته وحددت واجباته ووجهت افكاره
وجابته بالصعاب التي تقوى جسمه وتشحذ عقله وأعطته مشاكل الملاحظة ومشاكل
الري وفي نفس الوقت همست له بحلول لتلك المشاكل » .

وقد تعرضت الحتمية لكثير من النقد لانها لم تحاول ان تبرز دور الانسان ولا
مكانته وفعاليته في البيئة وانما اظهرت الانسان على أنه كائن سلبي كغيره من
الكائنات ، وأن البيئة هي التي تتحكم في الانسان وتسيطر على جميع اعماله وافعاله
وسلوكه . فالبيئة ليست المؤثر الوحيد في حياة الانسان ونشاطاته وليس أدل على ذلك
من اننا نجد انماطا مختلفة من الحياة في بيئات تكاد تكون متشابهة ففي المناطق القطبية
مثلا نجد أن انماط الحياة في سيبيريا تختلف تماما عن تلك التي في امريكا الشمالية .
ففي حين تعيش قبائل رعوية وجماعات ترعى الرنة في سيبيريا نجد أن اقوام الاسكيمو
في شمال كندا لم يستطيعوا استئناس حيوان الكاريبو ولا زالوا يعتمدون على صيد
الحيوانات التي تعيش في تلك الجهات اويستخرجون الاسماك من حفر يحفرونها في
الثلج للوصول الى المياه التي يغطيها الجليد .

1) La Blache. P.V., op.cit., P.9.

(٢) حسن طه النجم ، مرجع سابق ، صفحة ١٢٨ .

ولاشك في أن التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حققه الانسان وتغلب به على كثير من المعوقات والعقبات البيئية واستغلال الموارد الطبيعية ، قد هدم الاسس التي تقوم عليها نظرية الحتمية وافسح المجال لقيام فلسفة جديدة اطلق عليها الامكانية Possibilism . واذا كان الذين دخلوا الجغرافيا من باب العلوم الطبيعية قالوا بالحتمية فإن الذين درسوا الجغرافيا بعد دراستهم للتاريخ نادوا بالامكانية . ويعتبر «لوسيان فيفر» Lucien 'Fevre أول من اطلق مصطلح الامكانية Possibilism إلا أن اسسها واصولها وجدت عند فيدال دي لابلاش ، وسار عليها «جين برين» Jean Brunhes في فرنسا و«اسحق بومان» Isaak Bowman ، وكارل ساور Carl Sauer في الولايات المتحدة الامريكية (١) .

وعلى الرغم من اتفاق كل من الحتميين والامكانيين بتربط ظاهرات سطح الارض الآ انهم يختلفون في تفسير نوعية العلاقات فيما بينهما . ففي حين يرى الفريق الاول بحتمية التأثير البيئي يعتقد الفريق الثاني بأن الانسان هو المؤثر الاكبر في البيئة الطبيعية . فعلى سبيل المثال نرى أن هدف «سمبل» كان شرح واثبات كيفية تأثير المكان والموقع الجغرافي والتضاريس والمناخ على الانسان . اما «جين برين» الذي يمثل الاحتمالية فيعالج الجغرافيا البشرية عن طريق تصنيفه للحقائق الرئيسية مبتدئا بالحاجات الاساسية الى الحاجات الكمالية وذلك على النحو التالي (٢) :

- ١ - الحاجات الاساسية وتشمل الغذاء والشراب والسكن والملبس .
- ٢ - استغلال الارض ويشمل الزراعة والتعدين والصناعة .
- ٣ - الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية وتشمل دراسة المجتمعات والمجموعات البشرية نظرا لأن الناس يعيشون مع بعض ، ويتكاثرون ويعملون ويتوزعون على سطح الارض .

(١) جورج تانهام ، مرجع ، صفحة ٢٠٨ - ٢١٨ .

(٢) محمد على الفراء . «مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية» وكالة المطبوعات ، الكويت الطبعة الثالثة ١٩٧٨ صفحة ٤٣ -

٤ - الجغرافيا السياسية وتشمل دراسة العلاقات بين هذه المجموعات البشرية والمجتمعات والدول والبلدان . وفي تنسيق آخريين «برين» الاهداف الحقيقية للدراسة الجغرافية بحيث يبدأ كل مجموعة من مجموعاته الرئيسية الثلاث بعدة حقائق مرتبطة بالآتي :

الاحتلال او الاستغلال غير المنتج للتربة وهذا يشمل بناء المساكن واقامة المراكز السكانية والطرق (النقل والمواصلات) .

استغلال النبات والحيوان ويشمل ميادين الزراعة واستئناس الحيوان (الرعي) .

الاستغلال أو الاحتلال التخريبي للأرض ويشمل التعدين واستخراج المعادن من باطن الأرض وهذا يضر بالتربة ويدمر النباتات والحيوانات كما في حالة قطع الحشائش والغابات وصيد الحيوانات مما يساعد على انقراض انواعها وسلالاتها .

ويؤكد الامكانيون على أهمية الانسان والدور الذي يقوم به . وفي هذا الصدد يقول « لوسيان فيفر » (١) :

« الانسان عامل جغرافي ، بل أنه ليس اقل العوامل الجغرافية شأنًا ، وفي كل مكان يساهم الانسان بنصيب في تغيير وجه الأرض فيكسبه ملامح جديدة ، وهي المهمة التي يجب على الجغرافيا أن تدرسها . وعلى مر العصور وكر الاعوام تراكم نتائج اعماله . وبهذه الاعمال وبالاقدام والتصميم في الجهود التي يبذلها يمكننا ان نقول بأن الانسان عامل من اقوى العوامل التي تشكل وجه الأرض . وهذا هو الدور الذي يلعبه الانسان في الجغرافيا .

ويرى فيدال دي لابلاش بأن الانسان نشيط ايجابي وسلبي . ولنشاطاته فاعلية اثرت على معالم سطح الأرض فقد زرع النباتات واستأنس الحيوانات وحرر

(١) جورج ناتهام ، مرجع سابق ، صفحة ٢١٠ .

الطاقة واطلقها من عقالها . وهو يعتقد بأن الانسان عامل جغرافي مؤثر في سطح الارض وفي ذلك بقول :

« الانسان لا يستغل الوسائل غير العضوية اثناء تحويله لمظاهر سطح الارض . وهو غير قانع باستخدام النتائج المتخلفة عن عملية تحليل التربة بواسطة الحرث ولا بقناع باستغلال المساقط المائية . . . ولكنه يتعاون مع جميع القوى الحية التي تتجمع بفعل الظروف البيئية . وهو بذلك يشارك الطبيعة في عملها . » (١)

وعلى اية حال فإن مفهوم الايكولوجيا البشرية قد استخدم من أجل دراسة الانسان والبيئة من منظور غير حتمي لظهور مكانة الانسان في نسيج الحياة واقتصاد الطبيعة فقد استخدم بارك الايكولوجيا البشرية للدلالة على نسيج الحياة وتوازن الطبيعة ومفاهيم المنافسة والتزاحم والسيادة وغيرها من الافكار المستمدة من ايكولوجيا النبات والحيوان وبالنسبة الى « بارك » فإن الايكولوجيا البشرية تبحث في عمليات التوازن الحيوي وتحرى عنها . والانسان عامل هام في عملية التوازن هذه فهو يتفاعل مع الطبيعة من خلال ثقافته ووسائله التكنولوجية . (٢)

ويعبر « فيدال دي لابلاش » عن نفس الفكرة بعبارات لا تخرج عن اقوال الذين سبقوه فهو يقول : (٣)

« الجغرافيا البشرية يجب أن لا تكون مختلفة او الوجه المقابل للجغرافيا بعد استثناء المصالح البشرية منها . حقا أن هذا لا يمكن ان يوجد إلا في عقول الاختصاصيين . ولكن علمنا يقدم فكرة جديدة للعلاقات بين الارض والانسان فكرة ناتجة عن اكثر من معرفة تركيبية للقوانين الطبيعية التي تحكم ارضنا والعلاقات بين الكائنات الحية التي تسكنها . »

ويرى « فيدال » بأن ظاهرات الجغرافيا البشرية ترتبط بالوحدة الارضية وبدون هذا الارتباط لا يمكن تفسير تلك الظاهرات التي لا يمكن فصلها عن بيئتها

(1) La Blache, op.cit., P.20.

(2) Stoddart, D.R., op.cit.

(3) La Blache, op.cit., PP.3 -4.

الطبيعية^(١). ويعرف الايكولوجيا قائلًا بأنها «علم العلاقات بين جميع الكائنات الحية التي تعيش مع بعضها من ناحية، وفي نفس المكان وتكيفها مع اجوائها المحيطة بها»^(٢).

وقد عبر «ماكنزي» Mckenzie عن افكار ايكولوجية مشابهة ولكن بحكم خلفيته الاقتصادية ركز على الاسس الاقتصادية. اما الايكولوجيا البشرية كاطار منهجي فعبر عنه بمفاهيم بيولوجية صرفة فقد ردها الجغرافي الامريكي «هارلان باروز» Harlan Barrows في مقاله المقدم لرابطه الجغرافيين الامريكان في سنة ١٩٢٣ حيث يقول: (٣)

« الجغرافيا علم الايكولوجيا البشرية . . . وتهدف الجغرافيا الى توضيح العلاقات القائمة بين البيئات الطبيعية وتوزيع الانسان ونشاطاته . إن الجغرافيين - كما اعتقد - يعقلون حين يبسطون هذه المشكلة عامة مرتكزين على تكيف الانسان مع بيئته اكثر من الاعتقاد بالتأثير البيئي . . . أن مركز الجغرافيا دراسة الايكولوجيا البشرية في مناطق محددة » .

أن مشكلة تأثير البيئة في الانسان تؤدي الى مواضع شائكة ومعقدة مثل التأثير البيئي الذي نحن بصدده ، وموضوع الانتقاء والتكيف . ويبدو أن معظم الكتاب الذين جاءوا قبل دارون وكتبوا عن المؤثرات البيئية اكتفوا في بحوثهم وقنعوا بتحقيق هدف رئيسي عندهم هو الكشف عن القوانين السببية فهم يعتقدون بأن لكل حادث سبب وأن لكل سبب نتيجة . وما دام اهتمامهم منصب على السبب والنتيجة فلم يشغلوا انفسهم ببحث العملية نفسها من الناحية الاجرائية وهذا الموضوع تناوله «راتزل» في مجلده الاول «الجغرافيا البشرية» والذي اشرنا اليه سابقاً . ومن بعد «راتزل» حمل نفس الافكار تلاميذه مثل «سمبل» «وديمولين» Demolins كما نجد في كتابات «وليم موريس ديفز» William Morris Davis ميلا واضحا الى

(1) La Blache, P.7

(2) Ibid, P.9.

(3) Barrows, H.H, «Geography as Human Ecology» A.A.G., Vol. 13, 1923, PP. 1 - 14.

السببية واعتقادا بها . وفي انجلترا يعبر فليز عن السببية واثـر البيئـة في الانسان من خلال تقسيمه الاقليمي للانـسـاط البشرية الى اقاليم الشدة ، و اقاليم الجهد و اقاليم الزيادة . وهذا التقسيم جاء ولا شك تطبيقا وانسجاما مع افكار دارون عن الانتقاء الطبيعي من خلال التأثير البيئي للمجموعات البشرية .

ولو قمنا بعرض للافكار البيولوجية التي دخلت الجغرافيا لوجدنا بأن «الدارونية» او نظرية التطور قد فسرت من قبل الجغرافيين إما من حيث التغير عبر الزمن أو الكفاح والصراع الاجتماعي والانتقاء وليس ادل على هذا من أن افكار دارون عن الصراع والانتقاء لاقت ترحيبا وصدى رائعا في الجغرافيا السياسية . ففي عام ١٨٩٦ طوّر «راتزل» قوانينه السبعة عن نمو الدول والتي اشتق منها فكرته عن المجال الحيوي والذي سبقت الاشارة اليه . ويقول راتزل مردداً فكرة الصراع والانتقاء (١)

« أنه كما ان هناك صراع للبقاء في عالم النبات والحيوان يتركز دائما على مسألة المكان او الحيز نجد كذلك نزاعات بين الامم يتركز معظمها ويتبلور على شكل كفاح على الارض » .

وعلى أية حال فإن أفكار التغير عبر الزمن ، والكفاح والانتقاء طبقت عند غالبية الجغرافيين بمفاهيم حتمية . وقد قيل بأن الحتمية الجغرافية في صورتها السببية كانت احدى وجهات نظريوتن وقانونه السببي . وبناء عليه فإن أية مناقشة للأثر البيولوجي على الفكر الجغرافي يجب أن يرتبط بالتساؤل عن المبررات التي بموجبها فسرت الدارونية وما أتت به من افكار هامة مثل الانتقاء والمتغيرات التي تحدث عشوائيا على اسس حتمية وليست على مفاهيم احتمالية .

كما يحق لنا أن نتساءل عن عوامل اخرى حتمية مثل حدوث ظاهرة من الظاهرات من قبيل الصدفة ، أو توفر فرصة من الفرص . لماذا لم يأخذ الجغرافيون هذه الامور بعين الاعتبار ، وانما ركزوا على الحتمية فقط . ربما كان الجواب يكمن في

(1)Stoddart, D.R.,op.cit.,

التركيز على دراسة الظاهرة الطبيعية وإهمال كل ما غيرها من ظاهرات ، والتقليل من الإنسان والدراسات الإنسانية على اعتبار أن البيئة الطبيعية هي الأساس وأن أعمال الإنسان وأفعاله وسلوكه كلها محكومة بعوامل بيئية . وظل الجغرافيون منذ ظهور كتاب أصل الأنواع لدارون ولقرن من الزمان يسرون على هذا المنهج ثم بدأوا بإدراك أهمية العمليات الاحتمالية Stochastic في التغير الجغرافي . ويقول «ميرز» Merz في كتابه «تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر» المجلد الثاني المنشور عام ١٩٢٨ مايلي (١) :

« إن المشكلة أكثر من أن تكون جديدة بالاعتبار لأن دراسة العمليات العشوائية والصدفة في القرن التاسع عشر كانت محدودة ومحصورة في البيولوجية الدارونية » :
ثم قال :

« إن دراسة هذه الصدفة العمياء نظرية ، أما من الناحية التطبيقية فهي إحدى أكبر المشاهد العلمية للقرن العشرين » .

وفي العلوم الطبيعية أرسى « لابلاش » Laolace أسس النظرية الاحتمالية في مطلع هذا القرن وتبعه « أدولف كويتليت » Adolphe Quetelet في العلوم الاجتماعية . وفي نفس الوقت ظهرت نظرية الطاقة الحركية للغازات Kinetic theory of gases والتي طورها فيما بعد كل من « هرباث » Herapath « وكلوسيوس » Clausius « وكلارك ماكسويل » Clerk Maxwell . وقد وسع « بولتزمان » Boltzmann المفاهيم الاحصائية في الميكانيكا . وفي البيولوجيا نفسها كانت لأعمال دارون آثار هامة على الدراسات الاحصائية ابتداء من بحوث « جالتن » Golton و « بيرسون » Pearson إلى « فيشر » Fisher و « هالدين » Haldane (٢) .

فلماذا إذن وبعد كل هذا الجوال العلمي البعيد عن الحتمية يصير الجغرافيون على تناول العلاقة بين البيئة والإنسان من الزاوية الحتمية ؟ ربما كان يتحمل دارون نفسه بعض

(1) Stoddart, D.R., op.cit.

(2) Ibid.

اللوم لانه ميز بصورة واضحة في نظريته بين الطريقة التي بها يتأثر التطور وبين مجرى التطور نفسه . ويبدو أن الجغرافيا امسكت بالشرط الاخير واهملت الشرط الاول . وقد بدأ «دارون» بفكرة انتقاء تغيرات الصدفة والتي هي عادة محكومة بقوانين فشل «دارون» نفسه في الكشف عنها . وفي أثناء ذلك بدأ يقلل من تأكيده على عامل الصدفة . وفي الطبعة الاخيرة من كتابه اصل الانواع كان مهتماً بمسألة التغير المباشر بمفهوم اللاماركية Lamarcian Sense (١).

كما أنه لم يستخدم في اي فصل من فصول كتابه كلمة عشوائية . وفي الفصل الرابع قال بأن استخدام كلمة صدفة غير صحيح بالمرة . أن مشكلة دارون تكمن في تفسيره للتكيف في الطبيعة من خلال التغير والانتخاب الطبيعي فهو لم يستطع قبل كشف اعمال «مندل» Mendel وقانونه في الوراثة أن يقدم لنا أي تفسير للتغير الاساسي إلا أن نفس حقائق التكيف والتي تعتبر اقوى سند يدعم نظريته والتي يفسرها الانتقاء الطبيعي قد فسرهما «تشرش» Church من مفهوم التصميم . ولذلك فإن دارون تخلى عن المسألة الاساسية للتغير العشوائي وركز على السلالة والانتقاء . أن مفهوم دارون عن التطور والنمو عبر الزمن هو الذي امسكت به الجغرافيا على اعتبار انه مبدأ موحد لتصنيف كميات كبيرة من البيانات الواضحة وغير المترابطة . وأن الوضوح والنظام الذي يكشفه هذا التفسير له نتائج هامة على تقدم العلوم . ان عمل مندل وما قام به السير رونالد فيشر Ronald Fisher من معالجة احصائية للنظرية الوراثة للاختيار الطبيعي أعطت الاسلحة التي احتاجوا اليها . ولكن كتاب فيشر هذا ظهر بعد دارون بسبعين عاما كانت في أثناءها آثار نظرية التطور قد ظهرت في الجغرافيا وغيرها من العلوم الاخرى .

(١) اللاماركية او مذهب لامارك في التطور العضوى يؤكد على ان التغيرات البيئية تحدث في الحيوان والنبات بتغيرات بنوية تصحح وراثية وتنقل الى الذرية .

المدارس الجغرافية ونشأتها

تبين لنا مما سبق بأن البداية الحقيقية للجغرافيا الحديثة كانت في مطلع القرن التاسع عشر على يد العالمين الالمانيين الشهيرين « هنبولت » و « ريتز » ، والذين انتقدوا أعمال من سبقهما لأنها كانت عبارة عن تجميع لمعلومات جغرافية بطريقة عشوائية غير منسقة ولا مصنفة . وقد اعطى هذان العالمان الجغرافيا منهجها العلمي الواضح الذي ظل سائداً طوال القرن التاسع عشر . لقد عاب كل من « هنبولت » و « ريتز » كتابات من سبقهما من الجغرافيين لأنها كانت وصفية بحثه وغير منظمة . واعتبرا بأن التنظيم العلمي للمعرفة يمر بمرحلتين هامتين . ففي المرحلة الاولى تتم عملية التجميع الدقيق للحقائق التفصيلية . وفي المرحلة الثانية تربط المعلومات بشكل منطقي وتصاغ بوضوح حتى يسهل فهمها ، وتصنف بموجب عدد من القوانين التي تفسر العلاقة السببية بين الظواهر على نحو مختصر وبسيط . وما لاشك فيه فإن المرحلة الثانية هي الالهة في نظر هذين العالمين وكانت هذه الالهة خصائص الجغرافيا آنذاك والتي اطلق عليها الجغرافيا الكلاسيكية . فالوضع العام آنذاك كان يعتمد على الصياغة الناجحة للقوانين التي تساعد على تنظيم المعلومات بشكل واضح ومفهوم . وعلى حد قول « راتزل » اذا كانت الجغرافيا تستحق أن ترقى لمستوى العلم فعليها أن تنجح في عمل القوانين (١) .

ولسوء حظ الجغرافيا أن توفي هذان العالمان معاً في عام ١٨٥٩ . ولو قدر لأحدهما أن يعمر ولو قليلاً لتمكن من ترسيخ اسس الجغرافيا وقواعدها وتحديد مسارها على ضوء

(1) Wrigley, E.A., «Changes in the Philosophy of Geography» in Chorley, R.J. and Haggett, P., «Frontiers in Geographical Teaching» Methuen, London, 1970, P.3.

التيارات الفكرية والنظريات العلمية التي ذاعت وانتشرت بعد موتها مباشرة . ففي العام الذي توفيا فيه ظهرت نظرية «دارون» في النشوء والارتقاء والتي سبق الإشارة إليها . كما نشر قبل ذلك كتاب اسس الجيولوجيا للسير «تشارلس لايل» Lyell والذي اثر كثيراً على الجغرافيين ، فقد لفت انتباههم الى دراسة اشكال سطح الارض مما اعطى مزيداً من الاهتمام للجغرافيا الطبيعية على حساب الظواهر البشرية^(١).

اما نظرية النشوء والارتقاء لدارون فقد أغرت الجغرافيين بمحاولة الاستفادة منها في عمل التطبيقات واخضاع الظواهر الجغرافية لمنطق هذه النظرية . وقد ساهمت نظرية دارون في الفكر الجغرافي واتضح معالمها في اربع نقاط رئيسية هي (٢) :

- ١ - مفهوم التغير عبر الزمن .
- ٢ - مفهوم التنظيم .
- ٣ - مفهوم الصراع والانتقاء .
- ٤ - مفهوم العشوائية أو خاصية فرصة التغيرات التي تحدث في الطبيعة .

وامام هذه الآراء والنظريات الجديدة كان لابد من ظهور افكار ومفاهيم ومواقف جغرافية تبلورت فيما بعد على شكل مدارس ذات فلسفات واضحة . وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على بلوغ الجغرافيا مرحلة النضج . فهناك من ركز على الجغرافيا العامة في حين نادى فريق آخر بالاقليمية .

وفي اطار الجغرافيا العامة برزت اتجاهات متنوعة منها الاتجاه الذي ركز على اللاندسكيب Landscape أي صورة الارض . واطلق على هذا الاتجاه بمدرسة اللاندسكيب . ومن الجغرافيين من فهم الجغرافيا على أنها دراسة العلاقة بين الانسان والبيئة (مدرسة البيئة) . وهؤلاء هم الذين تأثروا بنظرية النشوء والارتقاء لدارون

(١) حسن طه النجم ، مرجع سابق صفحة ٤٢٦ .

(2) Davies, W.K.D., «Theory, Science and Geography» in Davies, W.K.D. (ed.) , op.cit., P.53.

واتباعه . وهناك من قال بأن الجغرافيا تهتم بدراسة العلاقات المكانية لمختلف الظواهر ، في حين ان البعض ركز على التوزيعات وعرف الجغرافيا بأنها علم توزيع الظواهر . ومن الجغرافيين من اعتبر الجغرافيا علم التباين المكاني الى غير ذلك من الآراء والأفكار التي يطول شرحها (١) .

وفيما يختص باللاندسكيپ فقد اختلف في مفهومه وتحديده . فقد كان الجغرافيون في القرن التاسع عشر يهتمون باللاندسكيپ الطبيعي ، وهم الذين تأثروا بالجيولوجيين ، بخاصة «تشارلس لايل» في كتابة اسس الجيولوجيا سابق الذكر . وانحصرت اهتماماتهم بدراسة جميع الظواهر الطبيعية لسطح الارض ونشأتها وتطورها وما يطرأ عليها من تغيرات بطيئة او سريعة وعوامل حدوثها وآثارها وتناجها الى غير ذلك من أمور .

وداخل اطار اللاندسكيپ الطبيعي ظهر اتجاه جغرافي ركز على اشكال سطح الارض دون سواها . ومن هذا الاتجاه ظهرت الجيومورفولوجيا التي ارسى اسسها ووضع قواعدها جغرافيون بارزون كان في مقدمتهم « بشل » . ومن بعده سار على هذا المنهج وعمق أصوله ووسع محتواه تلاميذه الذين كان لهم الفضل في نشره عالميا امثال ريختهوفن والبرخت بنك Albrecht Penck (١٨٥٨ - ١٩٤٥) في المانيا ، ووليم موريس ديفز W.M. Davis (١٨٥٠ - ١٩٣٤) في الولايات المتحدة الامريكية وصاحب نظرية الدورة التحاتية المشهورة في الجيومورفولوجيا Erosion Cycle .

وفي مواجهة التيار الطبيعي او اللاندسكيپ الطبيعي - كما يحلو للبعض أن يسميه - ظهر تيار بشري ينادي بضرورة الاهتمام بمظاهر اللاندسكيپ البشري طالما أن الانسان اصبح يقوم بدور كبير في تغيير معالم اللاندسكيپ الطبيعي وايجاد الكثير من المظاهر البشرية . وبناء عليه اصبحنا نسمع بمفهوم اللاندسكيپ الحضاري Cultural Landscape .

(١) محمد على الفراء ، «علم الجغرافيا : دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي» قسم الجغرافيا - جامعة الكويت ، اكتوبر ١٩٨٠ من صفحة ٤٣ - ٩٣ .

وإذا كان انصار اللاندسكيب الطبيعي دخلوا الجغرافيا من باب العلوم الطبيعية بخاصة الجيولوجيا ، فإن دعاة اللاندسكيب الحضارى ولجوا الجغرافيا من زاوية العلوم الانسانية بخاصة التاريخ والاجتماع . وهؤلاء زاد وزنهم على ضوء ما حققه الانسان من انجازات حضارية في مقابل الاختفاء التدريجي للبيئات الطبيعية على اثر تدخل الانسان في جميع ظاهرات الطبيعة . وفي حين كان يتطلب من طلاب الجغرافيا الطبيعية أن يدرسوا الجيولوجيا كعلم مساعد يحتاجون اليه في تفسير كثير من نشوء الظاهرات الطبيعية وتطورها فإن طلبة الجغرافيا البشرية يحتاجون الى الالمام ببعض العلوم الانسانية والاجتماعية كالتاريخ الذي يكشف الكثير عن حياة الانسان وحضاراته ، وكذلك الاجتماع الذي يدرس تكيف المجتمعات وبيئاتها ، والاقتصاد الذي يشرح الفعاليات والنشاطات البشرية على ضوء قدرة الانسان وكفاءته ومعطيات كل بيئة من بيئات العالم .

وعلى الرغم من كثرة المفاهيم الجغرافية - ربما في القطر الواحد - إلا أن معطيات كل بلد وظروفه المختلفة أوجدت نوعاً من القواسم المشتركة بين الجغرافيين في القطر الواحد بحيث صبغتهم بصبغة خاصة وميزة على الرغم من وجود فروق فردية ظاهرة بين هؤلاء الجغرافيين من حيث اهتماماتهم ، ومستوى تفكيرهم ، وطريقة تعاملهم مع مختلف الظواهر الطبيعية والبشرية .

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا أن نميز بوضوح بين مدرستين جغرافيتين ظهرتتا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين . وهاتان المدرستان هما المدرسة الالمانية ، والمدرسة الفرنسية . اما بريطانيا فلم تكن قد تبلورت فيها الافكار الجغرافية الى درجة تسمح بظهور مدرسة ذات طابع مميز ولم تكن الجغرافيا قد ارتقت الى مستوى التدريس في المستويات الجامعية .

ولعل من الانسب أن نبين ونحلل اهم خصائص المدرستين الجغرافيتين - الالمانية والفرنسية - لنقف على وجهات نظر كل منها ودورها في مسيرة الفكر الجغرافي العالمي .

المدرسة الألمانية

لعلنا أدرکنا من عرضنا السابق لنشأة الجغرافيا الحديثة وظهورها في المانيا جوانب كثيرة من الفكر الجغرافي الالماني ، وربما استطعنا أن نقف على تطوره ونموه وتبلوره وتشكله الى مدرسة لها ملامحها الواضحة وخصائصها المميزة ، وشخصيتها المستقلة . وكانت والحق يقال أول مدرسة فكرية جغرافية حديثة تستحق مثل هذه التسمية . وبما أننا تناولنا أهم افكار تلك المدرسة ووجهات نظرها وعلماؤها فإننا سنحصر كلامنا هنا على أهم خصائصها .

تتميز المدرسة الجغرافية الالمانية بغزارة انتاجها ، وكثرة علمائها البارزين ، الذين اكتسبوا سمعة عالمية ابتداء من مؤسسيها همبولت وريتر اللذان ارسيا القواعد الاساسية للجغرافيا الحديثة وما جاء بعدهما من علماء أفذاذ امثال فرديناند ريختهوفن ، وفردريك راتزل ، والفرد هتتر ، وجورج جيرلاند ، واوتو كريلمل Otto Krummel واسكندر سوبان Supan ، والبرخت بنك ، واوتو شلوتر Otto Schluter ، وبشل وغيرهم كثيرون .

ان هذا العدد الكبير من العلماء الالمان حمى الجغرافيا من التردى والسقوط طيلة القرن التاسع عشر ، ومكنها من النمو والتطور والتغلب على ما أصابها من تدهور وهبوط بعد وفاة همبولت وريتر مباشرة . والفضل كل الفضل في هذا كله يعود الى جهود عالين بالدرجة الاولى هما ، ريختهوفن وراتزل . ولقد كان لهما اعظم الاثر والتأثير في الجغرافيا الالمانية بحيث لا يستطيع باحث الا أن يرجع الى أعمالهما ويستنير بافكارهما التي اعطت المدرسة الالمانية مكانتها ، وساعدت على ذبوع آرائها وانتشارها لتتعدى حدود الوطن الالماني لتشمل العالم بأسره . وطيلة فترة حياة هذين العالين

كانت الجغرافيا الالمانية في ازدهار وصعود حتى شهدت في عهدهما مجدها الذهبي .
وعندما توفي ريختهوفن في سنة ١٩٠٤ ورائزل في عام ١٩٠٥ كانت المسيرة الجغرافية
ذات ملامح واضحة ، وأهداف محددة ، فهما اللذان مهدا الطريق امام تطور الجغرافيا
الالمانية ونموها (١).

وتتميز المدرسة الالمانية بأنها أول من ابتعد عن الاسلوب الفلسفي الصرف ،
واتباع المنهج العلمي . وكان همبولت صاحب هذا الاتجاه ، فقد سلك طريق
الاستقراء والتجربة وهو منهج يطلق عليه المنهج الامبريقي Empirical الذي يعتمد
على مشاهدة الظواهر التي تتكشف للحواس . وفي هذا يقول :

« ان اهم غرض في دراسة العلوم الطبيعية هو التعرف على الوحدة . . .
وادراك جوهر الطبيعة الذي يستتر تحت غطاء المظاهر الخارجية (٢) » .

ان مؤسسي المدرسة الجغرافية الالمانية وبرز اعلامها لم يكونوا جغرافيين
أصلا كما انهم لم يعدوا او يدربوا ليكونوا جغرافيين ، فهمبولت اعد في الاساس ليكون
موظفا حكوميا من خلال دراساته في التكنولوجيا والاقتصاد والتاريخ والفلسفة . وكان
اهتمامه الاكبر هو دراسة الطبيعة ولذلك عمل مفتشا للمناجم ، واهتم بدراسة بيانات
مظاهر سطح الارض وهذا ما حول اهتماماته الى الجغرافيا .

أما ريتر فقد دخل الجغرافيا من باب التاريخ وعلم اللاهوت حيث أعد في
الاساس ليكون رجل دين ، وهذا ما نراه واضحا في فلسفته ، وافكاره الجغرافية ، فهو
يؤمن بالمذهب الغائي Teleological ويرى أن الارض صممت - حتى في أدق
تفاصيلها - لخدمة غرض واحد هو أن تكون موطناً للإنسان ومستقره ، ولذلك يجب
أن تركز الدراسة الجغرافية عند ريتر على هذا الهدف .

(١) صمويل فان فالكنبرج ، «المدرسة الالمانية في الجغرافيا» جريفت بيلور ، مرجع سابق صفحة ١٣١ .

(٢) حسن طه النجم ، مرجع سابق ، صفحة ٤٢٣ .

وكذلك دخل كل من ريختهوفن وراتزل عن طريق العلوم الطبيعية ، فالاول دخل الجغرافيا عن طريق الجيولوجيا ، وجاء راتزل عبر الجيولوجيا وعلمي الحيوان والتشريح المقارن .

ولعل من الامور الملفتة للنظر أن مؤسسي المدرسة الجغرافية الالمانية اعتمدوا على الدراسات الميدانية والرحلات ، فهمبوتل بنى أهم أعماله الجغرافية على رحلاته الواسعة في أمريكا المدارية في الفترة الممتدة من عام ١٧٩٩ الى عام ١٨٠٤ ، وكذلك رحلته في آسيا الوسطى عام ١٨٢٩ . وقد تبنى ريتز هذا الخط وشجع على الدراسة الميدانية ، وهاجم الكتاب الذين يستمدون معلوماتهم الجغرافية من الكتب والتي يطلق عليها Arm Chair Geography أو التي تعتمد على النظريات والفرضيات المسبقة وفي هذا يقول :

« ينبغي أن تكون الجغرافيا علماً تجريبياً أكثر من كونها مستمدة من المناقشات العقلية الفلسفية ، او معتمدة على النظريات المسبقة . . . يجب على الباحث أن ينتقل في عمله من ملاحظة الى أخرى وليس من الفرضية الى المشاهدة (١) » .

أما ريختهوفن فقد بنى هو الآخر دراساته الجغرافية على أعماله الميدانية ورحلاته ففي عام ١٨٦٠ رافق حملة بروسية الى شرق آسيا ، ثم ذهب الى كليفورنيا ومكث بها ست سنوات . وفي عام ١٨٦٨ كلف بدراسة جيولوجية للصين بتمويل من بنك كليفورنيا ثم غرفة تجارة شنغهاي .

هذا وقد سافر راتزل الى معظم انحاء اوروبا وطبع ملاحظاته في كتابه « رحلات طبيعي » Travels of a Naturalist وفي عامي ١٨٧٤ و ١٨٧٥ زار امريكا الشمالية والوسطى مما ترك اثرا كبيرا على جميع افكاره وآرائه بخاصة الجغرافية ، ويرى هنتر بأن الملاحظة الميدانية هي أساس الدراسة الجغرافية . ولذلك اهتم الجغرافيون الالمان فيما بعد بالدراسة الميدانية داخل المانيا وخارجها .

(1) Hartshorne, R., op.cit., P.54.

ويبدو لنا أن المدرسة الجغرافية الالمانية حاولت ايجاد نوع من التوازن بين كل من الجغرافيا العامة ، والجغرافية الاقليمية على الرغم من غلبة الاولى على الثانية عند البعض حتى ليخيل لنا احيانا أن الالمان أعطوا اهتماما اكثر للجغرافيا العامة . فهمبولت ركز على الجغرافيا العامة وقال بأنها تدرس الظواهر من حيث توزيعها المكاني وعلاقاتها المكانية ومدى اعتمادها على بعضها البعض ، ويرى جيرلاند بأن الجغرافيا علم الارض . اما بشل ومعظم من سار على خطاه فقد ركز على المظاهر الطبيعية لظواهر سطح الارض اي اهتم بالجغرافيا المنهجية Systematic او العامة .

ولكن الى جانب اهتمام الالمان بالجغرافيا العامة فقد اولوا الجغرافيا الاقليمية عناية خاصة وربما كنا غير بعيدين عن الصواب اذا قلنا بأنهم وضعوا البداية الصحيحة لقواعدها . وكان «ريتر» في طليعة الجغرافيين الالمان الذين اهتموا بالاقليمية فهو يؤمن بأن وصف السطح وبيان بنائه المكاني يجب أن يسبق الدراسة التحليلية العامة لمجموعة الظواهر . ويرى هتربأن الجغرافيا ليست علما عاما للارض ولكنها علم اقاليم سطح الارض ، وهدفها الاساسي دراسة الاقاليم او المناطق لذلك اعطى للجغرافيا مفهوم التباين المكاني . الا أنه على الرغم من هذا كله فإن الجغرافيين الالمان اشتهروا باهتماماتهم الجغرافية المنهجية او العامة فراتزل مثلا جاءت شهرته نتيجة وضعه لاسس الجغرافيا البشرية ومناهجها وكذلك تحليله للعلاقة بين البيئة والانسان . واذا كانت الجغرافيا العامة سمة بارزة من سمات المدرسة الالمانية فإن الجغرافيا الاقليمية هي من اهم المعالم البارزة للجغرافية الفرنسية كما سنرى حين الكلام عن المدرسة الجغرافية الفرنسية .

ولعل من الملفت للنظر أن المدرسة الجغرافية الالمانية ركزت على دراسة الظواهر الطبيعية ، ولم تعط الظواهر البشرية حقهما من البحث والدراسة حتى أن بعض الجغرافيين امثال «جيرلاند» استبعد الظواهر البشرية كلية من الدراسة الجغرافية فهو يقول بأن الجغرافيا البشرية التي تتعامل

مع الامكانيات ليست علماً^(١) . وفيما عدا ريتز وراتزل فإن جميع الجغرافيين الالمان امثال بشل وريختهوفن وبنك وغيرهم كثيرون اشتهروا بأبحاثهم وكتاباتهم في الجغرافيا الطبيعية . وهذا التركيز من جانب الجغرافيين الالمان على الظواهر الطبيعية تسبب في ايجاد مشكلة الازدواجية داخل العلم الواحد مما افقد الجغرافيا وحدتها كما سبق وبيننا ذلك .

ولكن من الانصاف أن نذكر بأن همبولت لم يهمل دراسة الظواهر البشرية ولم يسقط الانسان من حسابه ، فهو ادخل مثل هذه الدراسات في كتاباته ، وابحاثه في الجغرافية الطبيعية ، والتي اعتبرها شاملة لكل الظواهر . ولعل اهتمامه الطاعي بالانسان جعله يؤكد العنصر البشري ، وهو في وصفه للمناطق المأهولة من العالم الذي زاره تناول بالشرح والتحليل للانسان وحضارته وعمله واعتبر ذلك جزءاً متكاملًا من عملية وصفه وتفسيره للطبيعة . الا أن الجغرافيين الذين جاؤا بعد همبولت وريتز فصلوا بين الظواهر الطبيعية والبشرية . وكانوا يقصدون بالجغرافية الطبيعية تلك التي سينحصر اهتمامها ، ويتحدد ميدانها في دراسة الظواهر الطبيعية فقط ، مما ولد في النهاية ردة فعل قوية . وظهرت في مقابل ذلك الجغرافية البشرية التي تدرس الظواهر البشرية .

وربما كان هناك بعض العذر للجغرافيين الالمان في تركيزهم على الجغرافية الطبيعية دون سواها ، واهمال الجوانب البشرية . فقد تميز العصر الذي عاشوا فيه بغلبة العلوم الطبيعية التجريبية ، والانصراف عن الافكار الفلسفية ، والاراء النظرية البحتة . ففي ذلك العصر بلغت الجيولوجيا مرتبة سامية بعد ظهور كتاب اسس الجيولوجيا للسير تشارلس ليل ، كما كان لنظرية دارون في النشوء والارتقاء آثار هامة في نمو وتطور العلوم البيولوجية . اما العلوم الانسانية فكانت لا تزال تعالج بطرق فلسفية ، وتناقش من زوايا نظرية بحتة ، ولم يكن الانسان قد حقق الانجازات التي حققها في ايامنا هذه . ولم تكن العلوم الاجتماعية قد تطورت بعد لتسير على المناهج

(1) Hartshorne, R., op.cit., p.111.

العلمية التي تسير عليها اليوم . كما أن مبدأ السببية لم يفقد بريقه بعد . وكما يقول «ديسارتون» فإن همبولت قام بعملية رصد للظواهر وبحث عن تفسيرها وهذا يتمشى ومبادئ السببية (١) .

ويرى الجغرافيون الألمان بأن هذا المنهج من شأنه الارتفاع بالجغرافيا إلى مرتبة العلم طالما أن ذلك يؤدي إلى البحث عن القوانين التي تحكم العلاقات التبادلية بين مختلف الظواهر . وفي ذلك يقول «ريتر» في كتابه الشهير Erdkunde (٢) :

« إن هدفي ليس مجرد جمع وتصنيف كمية أكبر من المواد أتفوق بها على من سبقني من الناس ، ولكن أريد أن أتبع القوانين العامة التي تخفي كل تباین الطبيعة ، ولأبين ارتباطاتها مع كل حقيقة تؤخذ منفردة ، ولأشير على مسرح تاريخي صرف الوحدة الصحيحة والانسجام القائم في التباين الواضح ، والتقلب الذي يسود الكرة الأرضية والذي يظهر بشكل متميز جدا في العلاقات المتبادلة بين الطبيعة والإنسان . ومن هذا المسلك يتفرع علم الجغرافية الطبيعية والذي فيه ينبغي تتبع كل القوانين » .

وبدولنا بأن فكرة الوحدة أو الكل المتكامل ظلت ملازمة لأفكار رواد المدرسة الألمانية وكثير من طلابها فريتر مثلاً يؤمن بالوحدة العضوية للمناطق الجغرافية أما همبولت فيعتقد بالوحدة الأرضية لكل ما هو عضوي . وفي ذلك يقول ريتر (٣) :

« إن كل منطقة محددة طبيعياً هي وحدة من حيث المناخ والانتاج والحضارة والسكان والتاريخ . »

وفكرة الوحدة على هذا النحو تعتبر حتمية تغيرت فيما بعد بالفكرة القائلة بأن درجة ترابط الظواهر السابقة (المناخ والانتاج والحضارة والسكان والتاريخ) هو هدف الدراسة الجغرافية .

(1) Dickinson, R.E., op.cit, P.30.

(2) Dickinson, R.E., op.cit., P.37.

(3) Ibid, P.42.

ونعتقد بأن دراسة الوحدة الجغرافية كفكرة مكانية كان الهدف الاساسي لجغرافية «ريتر» والذي أحسن توضيحها ، وشرحها في أثناء دراسته عن القارة الافريقية . فهو يرى بأن الفكرة مركبة أو مؤلفة من وحدات منفردة وهدف الجغرافي فحص كل منطقة بحسب خصائصها ، وهو يهتم بالمحتوى الكلي للمناطق . وبناء عليه كان هدف ريتر بناء أنظمة او مناطق على اسس استقرائية (١) .

إن فكرة الوحدة الجغرافية اتخذت صوراً واشكالا متعددة ، ولكنها كانت على أية حال وحدة مساحية في المقام الاول مهماً اختلفت التسميات ، وتنوعت المسميات . فالمنطقة والاقليم واللاندسكيب جميعها تحتل مساحة من الارض على الرغم من اختلاف مفهوم كل منها . ونجد أن الجغرافيين الالمان يتوسعون في استخدام بعض المفاهيم فكلمة Landschaft تعني احيانا اللاندسكيب Landscape وهي كلمة انجليزية تعنى صورة الارض كما سبق أن شرحنا سابقا . وتارة اخرى تعني اقليم region . ومع تردد مثل هذه المفاهيم فإن بعض الجغرافيين يعطي صفة التفرد للوحدة الجغرافية فهمبولت مثلاً يعترف بوجود لاندسكيب فريد ولكنه لم يركز على ذلك في ابحاثه وانما اهتم بالعلاقات العامة بين مختلف انواع الوحدات (اللاندسكيبات) الارضية . ولكن جاء من بعده جغرافيون سلطوا الاضواء على تفرد الاقليم واعتبروا ذلك هدف الدراسة الجغرافية ومحورها . وقد عاب كثيرون على الجغرافيين تمسكهم بمسألة التفرد ، واعتبروا ذلك أحد العقبات الرئيسية التي حالت دون ارتفاع الجغرافيا الى مستوى العلم . لأن التفرد يجعل من المستحيل على الباحث عمل التعميمات التي يعتمد عليها في صياغة الفرضيات والنظريات والقوانين .

(1) Dickinson, R.E., op.cit., P.42.

المدرسة الفرنسية

تحتل فرنسا مكانة مرموقة بين اقطار العالم بفضل ما تتمتع به من مكانة حضارية وبقدر مساهماتها الكبيرة في صنع الافكار والتيارات الفكرية العالمية وبلورتها. وقد قامت بدور فكري كبير ويميز في اواخر القرن الثامن عشر . وكانت العاصمة باريس مركز اشعاع ثقافي وحضاري جذبت كثيراً من المفكرين ، واستقطبت نخبة من العلماء البارزين منهم همبولت الذي قصدها بعد عودته من جولته في امريكا الوسطى ، واخذ يتصل بكبار علمائها ويحتك بهم طيلة عشرين عاما .

وعلى الرغم من أن المدرسة الجغرافية الفرنسية لم تتحدد معالمها ، ولم تتبلور افكارها إلا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بحيث جاءت من حيث الترتيب الزمني بعد المدرسة الالمانية التي سبقتها في الظهور ، إلا أن هناك بعض الافكار والاعمال الجغرافية المبكرة التي لا يمكن تجاهلها لكونها تعطي للجغرافيا الفرنسية عمقاً زمنياً أبعد مما قد يتصوره البعض ويمنحها رصيذاً علمياً لا بأس به . ففي القرن الثامن عشر شهدت فرنسا تقدماً ملحوظاً في فن رسم الخرائط «الكارتوغرافيا» بخاصة فيما يتعلق برسم خرائط العالم ، وفي القياسات الجيوديسية (المساحة الارضية) . وقد كللت هذه الاعمال بمسح فرنسا مسحاً جيوديسياً كاملاً في التسعينات من القرن التاسع عشر . وبذلك اصبحت الخرائط الاساسية جاهزة ومتوفرة للبحث الجغرافي في العقود التي تلت تلك الفترة ، مما ساعد أحد الكارتوغرافيين الكبار في منتصف القرن الثامن عشر وهو « فيليب بواشي » Philippe Buache على الافتراض بأن الارض يمكن تقسيمها الى مناطق حوضية صرفة بمستويات مختلفة . وكانت هذه الفكرة بمثابة محاولة لتقسيم الارض الى وحدات

طبيعية على الرغم من عدم توفر المعلومات الكافية عن الارض انذاك . وهذا التقسيم يتميز عن الذي سبقه والذي كان يعتمد الوحدات السياسية لكونه ثابتا في حين ان التقسيم السياسي متغير دوماً بحسب تغير الدول والاقطار وكان هذا مثار بحث ونقاش دائم بين العلماء الفرنسيين والالمان طيلة المائة سنة التالية (١) .

وقد استندت الجغرافيا في نموها وتطورها في فرنسا على ثلاثة عوامل . أولاها التقدم والتطور السريع الذي تم في دراسة الارض طبيعيا ، وتجمع الكثير من البيانات والرسومات للظواهر الطبيعية في البر والبحر والجو . وثانيها التقدم الكبير في معالجة الحقائق الخاصة بالمجتمعات البشرية والتي بدأها «فردريك لابلاي» Frederic Play . وثالثها ما قام به «اليزيه ركلس» Elisee Reclus من عمل عظيم تمثل في وصف عام منهجي لكل سطح الارض . ومن هذه الاتجاهات وخلفياتها بزغت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر مدرسة جديدة للجغرافيين المحدثين في فرنسا بقيادة «بول فيدال دي لابلاش» (١٨٤٥ - ١٩١٨) Paul Vidal de La Blache .

لقد كانت الجغرافيا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في أيدي نفر من المؤرخين والذين استعملوا البيئة الطبيعية كخلفية للتاريخ . وبناء عليه يمكن القول بأن الجغرافيا كانت تابعة للتاريخ . وفي مثل تلك الاحوال لم تكن الجغرافيا أكثر من وصف لعوامل البيئة التي تؤثر في التطور التاريخي سواء كانت تلك العوامل حقيقية أو فرضية . اما الجغرافيا الطبيعية فكانوا يعتبرونها تابعة للجيولوجيا ، وتتبع كلية العلوم ، في حين كانت الجغرافيا البشرية تتبع كلية الآداب . وقد كانت مهمة فيدال دي لابلاش الأساسية في أن يقرب بين منهج الجيولوجي ومنهج المؤرخ ومن هنا ظهرت الجغرافيا الحديثة .

ويمكننا تلخيص الوضع الاكاديمي للجغرافيا الفرنسية نقلا عن «ديكنسون» على النحو التالي " :

«كان يوجد بجامعة باريس منذ عام ١٨٠٩ كرسي للجغرافيا وقد شغل

(1) Dickinson, R.E. op.cit., P.189.

(2) Dickinson, R.E., op.cit., PP.190 - 191.

هذا الكرسي بموت هملي A. Himly والذي كان في الاساس مؤرخا . وكان مثل معاصريه في المانيا لم يؤثر على تطور الجغرافية الحديثة . وفي عام ١٨٩٢ انشيء كرسي آخر للجغرافية المستعمرات شغله «ديسوا» M. Dubois والذي اشترك مع فيدال دي لابلاش في انشاء الحوليات الجغرافية Annals de Geographie وقد خلفه بعد ذلك «برنارد» A. Bernard . وفي سنة ١٨٩٣ تم تأسيس معاهد في «ليل» وغيرها تبعتهابوقت قصير معاهد اخرى في ليون ونانسي ورينيه Rennes . وفي عام ١٩٠٠ عين فيدال دي لابلاش في السربون وديهارتون De Martonne في رينيه ، وكامينا دالميدا P. Camena d' Almeida في بوردو، ولسبانول Lespagnol في ليون ، «وبرنارد» في الجزائر «وبرين» Brunhes في «فريبورج» بسويسره . هذا وقد قام بعض المؤرخين في «بيزانسون» Besancon وكليرمونت فيراند Clermont Ferrand بكلية فرنسا College de france في باريس بتدريس ما يسمى «الجغرافيا التاريخية» وهي عبارة عن جغرافيا طبيعية ذات مادة ضحلة تستخدم كخلفية في دراسة التاريخ وبالاخص تاريخ الارتباد واسماء الامكنه والتقسيمات الحدودية . وكان هذا هو الوضع حينما انتقل فيدال دي لابلاش الى كرسي الجغرافيا في عام ١٨٩٩ خلفا لـ «هملي» بعد ان قضى فترة طويلة في دار المعلمين العليا . وفي عام ١٩٠٦ كان يوجد بالجامعات الفرنسية ٢٧ أستاذاً ومحاضراً في الجغرافيا . وبعد الحرب العالمية الاولى ادخلت الجغرافيا في كل الجامعات الفرنسية وكان جميع الاساتذة تقريبا تلاميذا لفيدال دي لابلاش .

وهناك تطوران هامان ينبغي التعليق عليهما أن كل من «أندريه سيجفريد» Andre' Siegfried وجين «أنسل» Jean Ancel ارتقيا بالجغرافيا السياسية بشكل بارع .

وكان « أنسل » تلميذا لديمانجون وكتب رسالته لدرجة الدكتوراه عن - مقدونيا وتطور معاصريها (١٩٣٠) واخرج دراسات عن الجغرافيا السياسية للبلقان واوروبا الوسطى . وقد عارض الجيوبوليتكا النازية ومات في معسكرات الاعتقال أثناء الحرب العالمية الثانية . أما سيجفريد (١٨٧٥-١٩٥٩) فقد احتل كرسي البحث

لمدة طويلة للجغرافيا السياسية والاقتصادية بكلية فرنسا . وقد أعطته كتاباته سمعة عالمية وانتخبت الى عضوية الاكاديمية الفرنسية في عام ١٩٤٥ .
وثاني هذه التطورات تتمثل في تطور ونمو جغرافية الاستعمار منذ انشاء أول كرسي لها في باريس سنة ١٨٩٢ . ثم اسس كرسي اخر في باريس في عام ١٩٣٧ وشغله « تشارلس روبيكية » Charles Robequain حتى وفاته في عام ١٩٦٣ . وفي عام ١٩٤٦ انشئت كراسي جديدة في هذا الميدان في ستراسبورج وولاية « اكسن » Aix-en-Provence وبوردو . وفي عام ١٩٤٧ اسس كرسيان ايضا في مدرسة فرنسا لما وراء البحار Ecole de France d'Outre Mer والتي انشئت في عام ١٨٨٩ . وكلية فرنسا كان بها كرسي للبحث للجغرافيا المدارية شغله « جورو » P. Gourou . وكان هناك ايضا كرسي في الجزائر شغله على التوالي « هاردي » Hardy و « برنارد » و « جوتير » Gautier . ويعتبر اطلس المستعمرات الفرنسية Atlas des Colonies Française رائعا للاراضي المستعمرة من قبل فرنسا ويحتوي متنه على مساهمات كل من برنارد وجوتير وروبيكية ووليرسيه Wealersse . وجور وجميعهم جغرافيون محترفون . وهؤلاء من بين آخرين كانوا مسئولين عن نشر كثير من الابحاث في السبعين سنة الماضية عن الشمال الافريقي وجنوب شرق آسيا والشرق الاوسط .

وقد كانت مهمة فيدال دي لابلاش أن يصيغ ميدان الجغرافيا ليوفق بين مساهمات معاصريه الكبار في فرنسا في حقلي الجيولوجيا والتاريخ . وقد تم له تحقيق ذلك بواسطة المزج بين الارض والسكان في اطار المناطق الصغيرة بفرنسا والتي يمكن الوصول اليها مشياً على الاقدام ومعروفة للوهلة الاولى وتم رسم خرائطها وتتوفر عنها البيانات الاحصائية والوثائقية .

ويبدو أن الجغرافيا الطبيعية وبخاصة دراسة اشكال سطح الارض كانت متقدمة بفضل جهود علماء بارزين في العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر . وقد وضع كل من « دفرنو » Dufrenoy و « بيمونت » Elie de Beaumont في عام ١٨٤١ فكرة وحدة الارض الطبيعية مثل حوض باريس والسنترال ماسيف على اساس ظهور ظروف جيولوجية متشابهة . وهذه الفكرة تعارض فكرة « بوشي » وكانت

تسبق عصرها بجيل كامل . هذا وقد قام كل من «دي لاند» و«دي مارجري» G.de La Noe and Em. de Margerie بدراسة تقويمية للدور الذي يلعبه النهر في تطور اشكال الارض (١٨٨٦) . وهذا المنهج التطوري يعترف بدور عوامل التعرية والعوامل التكتونية والبيئية في تطور ونمو اشكال الارض . اما ديمارتون فقد اسهم مساهمات هامة في الجغرافيا الطبيعية ولا تزال اعماله مراجع هامة . وفيما يختص بالجغرافيا البشرية فيبدو أن لافكار وآراء فردريك لابلاي (١٨٠٦ - ١٨٨٢) Pierre Frederic le Play ومناهجه تأثير عميق على تطور الجغرافيا في كل من فرنسا وبريطانيا على الرغم من انه ليس جغرافيا . ولذلك فبدون عرض بعض افكار «لابلاي» وارهائه يصبح فهمنا للفكر الجغرافي الفرنسي وحتى البريطاني غير مكتمل .

شعر «لابلاي» بنقص كل من وحدة القياس ، ومنهج الاستقراء العلمي اللازمين للفحص المنهجي للظواهر الاجتماعية . وقد حل هاتين المشكلتين بأن أخذ ميزانية الاسرة كتعبير كمي لحياة الاسرة ولتستخدم كأساس لتحليل الحقائق الاجتماعية . وقال بأن الحياة العائلية أو الاسرية والتنظيم يعتمدان على مناهج أو طرق الحياة والمعيشة أي العمل . واعتقد «لابلاي» بأن خاصية العمل تتحدد بدرجة كبيرة بحسب طبيعة البيئة أي المكان . وبناء عليه نحصل على المعادلة المشهورة : المكان Place والعمل work والاسرة family . وتعتبر هذه المعادلة محور دراسات «لابلاي» الاجتماعية المونوجرافية .

ويرى «لابلاي» بأن تطور السكان الاوروبيين مرتبلا بثلاث بيئات جغرافية مختلفة هي : الاستبس والشواطئ البحرية والاراضي الغابية . كما بحث في تقييم المجتمع على اساس ثمانية انماط وظيفية رئيسية بحسب وسائل العيش : المتوحشون ، والرعاة وصيادو السمك ، والخطابون والمعدنون والزراع ، والصناع ، والتجار واعضاء المهن الحرة . وأهمية هذا التصنيف تكمن في انه يحاول ولأول مرة تصنيف المجتمعات على أساس دراسات العينة العائلية الى عدد من الانماط وتوطنهم بحسب علاقاتهم ببيئاتهم الطبيعية . وفي مثل تلك المجتمعات نرى عادة بأن نمط الحياة ينعكس على

الخصائص الاجتماعية العامة والمتنوعة في الاعراف العائلية . وقد ظلت هذه الفكرة هدفا رئيسيا للبحث الجغرافي ، واعطيت اهتماما خاصاً من قبل الجيل التالي وبخاصة من فيدال دي لابلان حينما طور فكرته عن نمط الحياة genre de vie . وبعد وفاة لابلان حمل افكاره «ديمولين» Demolin والذي قاد نفس الاتجاه ، وزاده توضيحا وتفسيرا في كتابه المسمى المعابر الكبرى للسكان Les grandes routes des Peuples والمنشورين عامي ١٩٠١ و ١٩٠٣ . وفيه يحلل «ديمولين» التركيب الاجتماعي لسكان العالم على أساس ما يطلق عليه « البيئة الجغرافية » نمط عملهم الناتج عن البيئة ، وكذلك التنظيم الاجتماعي - على اساس وحدة الاسرة . والبيئة تتحكم في تطور السكان وتركيبهم ، وهذا يعبر عن مغالاة في الحتمية الجغرافية .

ان الفكرة الاساسية لديمولين نجدها موضحة في مقدمة المجلد الأول من كتابه سابق الذكر على النحو التالي : ان السبب الأساسي والحاسم لتنوع البشر ، وأجناسهم هو الطريق الذي سلكته الاقوام . ان الطريق (البنية) يعتبر المسئول عن خلق الجنس والنمط الاجتماعي لقد شكل الطريق المغول والتتار والاسكيمو واللاب والهنود والزنج وجعلوا منها انماطا إن طريق الصحاري العربية او طريق الصحراء الكبرى وطريق جنوب اسيا أو طريق شرقيها جميعها شكلت تدريجيا وبنوع من الحتمية القوية مختلف الانماط مثل النمط العربي والاشوري والمصري والميدي (الفرس) والصيني والياباني والهندي .

ويرى ديمولين بأن البيئة حدّدت من خلال معطياتها نمط العمل والحياة فحيثما يتوفر العشب امتن الناس الرعي كما في الاستبس حيث اعتمد السكان على الحصان الذي اثر في سلوكهم وطباعهم القائمة على الغزو . اما في المناطق الساحلية فيمتن الناس صيد الاسماك بينما في السهول الخصبية يحترفون الزراعة . وكل حرفة اثرت على الحياة الاجتماعية ووجدت نمطا مميزا مثل النظام الابوي Patriarchy والذي فيه يشتد نفوذ الاب ، في حين ان المجتمع الاموي Matriarchy يقوى فيه دور الام .

ولعل من أهم الامور التي اخذها الجغرافيون عن «لابلاي» فكرة الدراسة الميدانية والتي شاعت في كل من فرنسا وبريطانيا وسارت على المعادلة الشهيرة : المكان والعمل والاسرة او الناس . وقد كان لهذه الفكرة تأثير كبير على «فيدال دي لابلاش» نفسه ، فقد شجع «لابلاش» القيام بالدراسات الميدانية التفصيلية ، وحث على نشرها باعتبارها غزيرة المادة . ويعتقد بأن الجغرافيا الممتازة هي التي تؤخذ من الطبيعة مباشرة .

ومما لاشك فيه بأن الفضل في تحديث الجغرافيا ، وتأسيس المدرسة الفرنسية يعود إلى جهود فيدال دي لابلاش وحده على خلاف ما هو في المانيا آنذاك حيث كانت هناك اراء وافكار متميزة ربما اعطت الانطباع بوجود اكثر من مدرسة واحدة . وبناء عليه فإن عرض افكار واء لابلاش بمثابة تحليل للقواعد الفكرية للمدرسة الجغرافية الفرنسية .

يرى «لابلاش» بأن التزام الجغرافي يكمن في مدى الارتباط بين الظروف الطبيعية والبشرية من حيث علاقاتها المكانية . فالبينة الطبيعية تمد الانسان بامكانيات يستطيع استثمارها لمنفعته ومصلحته وفقاً لحاجاته ، وتحقيقاً لرغباته وبحسب طاقاته ، وذلك من أجل بناء موطنه . وهذا ان دل على شيء فإننا يدل دلالة واضحة وصريحة بأن «لابلاش» عارض حتمية البيئة التي كانت سائدة آنذلك كثرات موروث من دارون . وبدلاً من ذلك اسس اطاراً مفهوماً للمكانية والذي طوره فيما بعد تطويراً كاملاً المؤرخ الناقد «لوسيان فيفر» على نحو ما سبقت الاشارة اليه حين الكلام عن الحتمية والامكانية .

ويعتقد «لابلاش» بأن الانسان يكون علاقات مع البيئة ليس بصفته المنفردة ، ولكن عبر تراث المجموعة التي ينتمي اليها وبواسطة اهدافها التي تسعى اليها .

ان اهم الاعمال العلمية لفيدال دي لابلاش والتي خلدهت تمثل في مؤلفه المسمى لوحة فرنسا الجغرافية Tableau de la Geographie de la France والمشهور في عام ١٩٠٣ وفيه يشرح ويحلل المظاهر الطبيعية للارض ، وبصمات الانسان على

اللانديسكيب ، والتنظيم الناتج عن تقسيم البلاد الى وحدات متمايزة .
حاول لابلاش أن يؤسس الجغرافيا كنظام مستقل بحيث يكون ميدان
دراستها مجموعة الظواهر التي تحدث في منطقة اتصال الكتل الصلبة والسائلة والغازية
التي تكون الكوكب الأرضي ، وتدرس الظواهر من حيث علاقتها بالمكان والموقع
والتوزيع . وبذلك فإن ميدان الدراسة له مظهران هما : الطبيعة والانسان . وحتى
نتمكن من تفسير تعابير الطبيعة والانسان على سطح الارض نحتاج الى الاستعانة
بالعلوم الطبيعية والانسانية ، وبخاصة الجيولوجيا والتاريخ . وبالنسبة للطبيعة فإن
سطح اليابس يجب تفسيره على ضوء الماضي الجيولوجي واعمال الانسان ، وان لب
الدراسة ومحورها هو المظهر أو المشهد الطبيعي *Physionomie des paysages* وهذا
يعني اللانديسكيب الحقيقي والمرئي أو الموطن *habitat* والذي هو عبارة عن نتاج
كل من الطبيعة والانسان .

وقد اعتبر «لابلاش» الوسط الطبيعي *Physical miliea* هي البيئة
الطبيعية أو الجغرافية للمجتمع الانساني وهي وجهة نظرينادي بها كثيرون . ويرى
بأن الظروف الاجتماعية يمكن تفسيرها على ضوء الانماط المتميزة للحياة ، والتي
تظهر في المجتمعات البسيطة على نحو تكيف تام للبيئة الطبيعية .
ولعل اهم من أعمال «لابلاش» أنه قام بتنقيح آراء «لابلاي» وتطويرها
لتلائم العصر وتنسجم مع الافكار المطروحة آنذاك ، ومن ثم انتقلت الى بريطانيا
حيث ردها «هربرتسون» في أعماله المنشورة في عام ١٩٠٢ عن الانسان وفعاليتها
ومدى تأثيره في اشكال اللانديسكيب وقدرته على تكوين اشكال بشرية من
اللانديسكيب مثل الطرق والحقول والقرى والمدن والسكان وحركاتهم وتوزيعهم
وكثافتهم وخصائص الانماط الثقافية وتوزيعها ، وعلاقة البيئة بالملبس والمأكل
والمسكن والامور المادية التي يستخدمها الانسان . ويحدد «لابلاش» هدف الجغرافيا
بقوله انها تكمن في الاهتمام بخصائص ظواهر اللانديسكيب ، وتجميعها لأن في ذلك
تفسير وتعبير عن وجود الانسان واعماله .

ويعتبر «جين برين» *Jean Brunhes* (١٨٦٩ - ١٩٣٠) من الجغرافيين

الفرنسيين البارزين وبخاصة في الجانب البشري . وهو لا يقل شهرة عن فيدال دي لابلاش الذي كان استاذاً له وزميلاً فيما بعد ، فقد عين استاذاً للجغرافيا بجامعة فريبورج بسويسره عام ١٨٩٦ . وحاضر في الجغرافيا البشرية بجامعة لوزان سنة ١٩٠٨ وما بعدها . وفي عام ١٩١٠ نشر اهم مؤلفاته بعنوان الجغرافيا البشرية وعلى اثره دخل كلية فرنسا «الكوليج دي فرانس» .

ويرجع الفضل الى «جين برين» انه وضع الاسس المنهجية الواضحة للجغرافيا البشرية . وعلى الرغم من تأثره بأفكار «لابلاش» ورائته إلا انه ركز اهتمامه على مظاهر سطح الارض بدلا من العناية بالظروف الجغرافية والمجتمعات البشرية على نحو ما فعل «لابلاش» . وبناء عليه قسم «برين» محتوى الجغرافيا البشرية على شكل استغلال او احتلال لسطح الارض على النحو التالي :

١ - الحقائق التي تعالج الاستغلال او الاحتلال غير المنتج للتربة مثل

الطرق والمساكن التي تنقص الارض ولا تزيدها ، وتفقد الزراعة اهم مقوماتها .

٢ - الحقائق التي تبحث في استغلال النبات والحيوان ويشمل ميادين

الزراعة واستئناس الحيوان وحرفة الرعي . ويطلق «برين» على هذا البند

احتلال النبات والحيوان لسطح الارض .

٣ - الحقائق المتعلقة بالاحتلال التخريبي للارض أو ما يطلق عليه

بالاقتصاد المخرب للنبات والحيوان والمعادن . وهذا يشمل النشاط التعديني

الذي يتمثل في استخراج المعادن من باطن الارض مما يضر بالاراضي الزراعية

ويفسد التربة ويدمر النبات والحيوان مما يؤدي في النهاية الى انقراضها .

وفيما يتعلق بقنوات الاتصال ، ونقاط التشابه والتهايزين كل من المدرسة

الفرنسية والالمانية نجد الاولى تأثرت بالثانية من خلال تبنيها لكثير من آراء «ريتر»

أحد مؤسسي المدرسة الالمانية .

فالمدرسة الفرنسية تأثرت بأفكار ريتر اكثر من تأثرها بآراء همبولت . ولعل

سبب ذلك يرجع الى ان المؤسس الحقيقي للمدرسة الجغرافية الفرنسية وهو «اليزيه

ركلس» Elisee Reclus كان من أنجح تلاميذ «ريتر» فقد تتلمذ عليه في عام

١٨٥١ وتأثر به ، وأعد دراسات في الجغرافيا العامة ثم في الجغرافيا المنهجية العامة قبل السعي نحو مسح اقليمي تام . وهو على خلاف ريتز فقد كَوّن سمعته ليس من الجغرافيا الاقليمية وانما بدراساته في الجغرافيا الطبيعية المنهجية وألف كتابا اطلق عليه الارض La Terre (١٨٦٦ - ١٨٦٧) . وقد ترجم الى اللغة الانجليزية فيما بعد . وقد اطلق «شميدت» Schmidt على «ركلس» لقب «ريتز فرنسا» على اثر نشر تسعة عشر مجلدا في المسح الاقليمي ظهرت بعنوان جغرافية العالم الحديثة Nouvelle geographie Universelle في السنوات ١٨٧٥ - ١٨٩٤ (١) .

ويأتي راتزل بعد ريتز من حيث تأثر الجغرافيين الفرنسيين به وبأفكاره اكثر من تأثرهم بريختهوفن (٢) مما يعطي الانطباع بأن المدرسة الجغرافية الفرنسية غلبت الجانب البشري على الطبيعي ، مما يجعلنا نقول بأن الفرنسيين اشتهروا بدراسة الظواهر البشرية واليهم يرجع الفضل في بلورة الجغرافيا البشرية ووضع قواعدها ، واسسها ومناهجها الحديثة ومن اشهر اساتذتها وابرزهم «فيدال دي لابلاش» و «جالوا» و «برين» و «ديمانجون» . ولعل لابلاش تميز بأنه كان أول من وضع الاسس المنهجية للجغرافيا البشرية ومحتواها في كتابه الشهير «اسس الجغرافيا البشرية» والذي ترجم الى عدة لغات منها الانجليزية (٣) . وقد تميز اسلوب الكتاب بسلاسة العبارة ، ورصانة الكلمة ، وبلاغة جملة وعمق افكاره . ومما يؤسف له ان لابلاش توفي فجأة في الخامس من ابريل عام ١٩١٨ قبل أن يكمل الكتاب فأتمه تلميذه الوفي وزوج ابنته «ايمانويل ديارتون» ونشره في اكتوبر عام ١٩٢١ .

والكتاب يبدأ بمقدمة يناقش فيها ويشرح معنى الجغرافيا البشرية وأهدافها ويطرح فيها اراءه وافكاره الجغرافية مثل مبدأ الوحدة الارضية ومفهوم البيئة ، والعلاقة بين الانسان والبيئة ، والانسان كعامل جغرافي .

(1) Hartshorne, R. P. 85.

(2) Ibid, P. 122.

(3) De La Blache, P.V., Op.cit.

ويتألف الكتاب من ثلاثة أقسام وستة عشر فصلا تشمل محتوى الجغرافيا البشرية. ويبحث القسم الأول في توزيع السكان من حيث المسح العام وتباين هذا التوزيع بحسب المناطق والاقاليم العالمية، ثم يشرح نمو الكثافة السكانية، والتجمعات الكبرى في اسيا وافريقية واوروبا. ويخص اقليم البحر المتوسط بفصل خاص يعالج فيه بعض المؤثرات كالسهول والجبال والتأثير العربي.

وفي القسم الثاني من الكتاب يحلل «لابلاش» اسس الحضارة من خلال الجماعة وبيئتها وعملية التكيف وبروز الاجناس البشرية، ثم يتكلم عن الادوات والمواد الخام على اعتبار انها تشكل القاعدة في الدراسات الاثنوجرافية. وفي الفصل الثاني أيضا يتناول وسائل العيش وانماطه بحسب مناطق العالم واقليمه: نمط البحر المتوسط، النمط الامريكي، نمط وسط اوروبا، نمط شمال اوروبا، النمط الصيني - الياباني وانتشار الزراعة. ثم يشرح مواد البناء بحسب الاقاليم أيضا وبعد ذلك يتكلم عن المستوطنات البشرية وتنوعها بحسب طبيعة البيئة ومعطياتها. واخيرا يتحدث عن تطور الحضارات. وفي هذا الفصل يبرز لأول مرة فكرة «النقاط العقدية» Nodal Points أو المركزية اي المراكز التي تنشأ نتيجة مرور جميع الطرق بها بحيث تتخذ شكل عقده Node. وقد لاقت فكرة النقاط العقدية اهتماما كبيرا من قبل الجغرافيين البشريين وبخاصة في ميدان جغرافية الحضر وال عمران في الوقت الحاضر ونذكر منهم «بيتر هاجيت» P. Haggett في انجلترا.

اما القسم الثالث من الكتاب فيخصصه «لابلاش» للنقل والحركة حيث يشرح في تطور وسائل النقل بدءاً بالانسان نفسه واعتماده على قواه الذاتية الى الحيوان ثم العربة، واستخدام الطرق ومواقعها وتطورها، والسكك الحديدية وعلاقتها بالكثافات السكانية. ويختتم هذا القسم الاخير بالكلام عن النقل البحري، نشأته وتطوره.

وقد اهتم «ديمانجون» Albert Demangeon (١٨٧٢ - ١٩٤٠) تلميذ «لابلاش» بالجغرافيا البشرية حتى اصبح أشهر استاذ لها بعد وفاة لابلاش، وركز

على العمران الريفي الفرنسي . وهو يحصر المحتوى الجغرافي ويجلعه ينصب على انماط الحياة في اقاليم العالم المناخية ، وعلى الاساليب الحياتية السائدة كالقنص والصيد والزراعة والتجارة . ويتناول بالدراسة الكثافة السكانية وتوزيع السكان وهجرتهم ونوعية استيطانهم سواء كان هذا الاستيطان حضريا اوريا . وهو يعتقد بأن محتوى الجغرافيا البشرية يتغير كلما غير الانسان نشاطه على وجه الارض (١) .

وقد عرف «ديمانجون» الجغرافيا البشرية بأنها دراسة الجماعات البشرية في علاقاتها البيئية . وهو يرى بأن أساس الجغرافيا البشرية يعتمد على الوحدات الاقليمية الطبيعية ولكنه يرفض الحتمية رفضا باتا . وفي اعتقاده ان الجغرافيين يهتمون بالعوامل الطبيعية ، وبالمسرح الطبيعي وبالتحديد الانماط ، كما اعتنى بالدور الذي تؤديه العوامل التاريخية في اشكال التعمير . ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى ان الجغرافيين الفرنسيين اولوا دراسة المدن عناية خاصة . ومن اشهر من ساهم في هذا الميدان «جالوا» Gallois و «ليفانفيل» J. Levainville و «بلانشارد» Blanchard (٢) .

ومن اهم المسائل التي بحثها الجغرافيون في فرنسا صراع الانسان في البيئات القاسية ، وكفاح الانسان في الصحراء والجبل والغابة والبحر والنهر ، وكذلك جغرافية الاستقرار والنقل والاستعمار . وقد قسم «دفونتين» P. Deffontaines مناطق الارض التي يستقر فيها الانسان الى نمطين هما : نمط المناطق التي يغلب عليها نوع واحد من الاقتصاد البشري . والثاني نمط المناطق التي تخضع فيها الحياة الحاضرة لمؤثرات معقدة بسبب اتصالات قوية فعالة وطويلة الامد (٣) .

والى جانب اهتمام الفرنسيين بالجغرافيا البشرية فقد تفوقوا في الدراسات الاقليمية . ونبغ في ذلك فيدال دي لابلاش وجالوودبيارتون . وقد ألهمت أعمالهم معظم الجغرافيين في فرنسا والعالم . واستطاع الفرنسيون عمل الكثير من الدراسات

(١) محمد على الفرا ، «مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية» مرجع سابق ، صفحة ٤٤

(٢) هاريسون تشيرش ، «المدرسة الجغرافية» الفرنسية في كتاب الجغرافيا في القرن العشرين (مترجم) مرجع سابق ، صفحة ١١٢

(٣) المرجع نفسه ، صفحة ١١٤ .

الاقليمية والتي تركز معظمها على الاقاليم الفرنسية ، وظهرت على شكل بحوث مونوجرافية «كراسات» تميزت بالوصف الشيق والتحليل العلمي الدقيق ، والعرض الفني . ولم يحصر الجغرافيون الفرنسيون انفسهم في الكتابة عن الاقاليم الفرنسية بل تعدوا ذلك وكتبوا عن اقطار اخرى من العالم وبخاصة البلدان الاوروبية مثل الجزر البريطانية ، والاراضي المنخفضة ، ووسط اوروبا وامريكا الشمالية . ونظرا لغزارة البحوث الاقليمية الفرنسية وضخامتها فإن من غير الممكن أن نفيها حقها من الذكر . ويمكن القول بأن المدرسة الاقليمية تميزت بعبقرية فذة وخاصة فهي تميل الى التشخيص الحي السليم لجوهر المنطقة بالشرح والتحليل مع التوضيح بالخرائط والاشكال والرسوم دون التقيد بالحدود الجامده .

المدرسة الانجلو أمريكية

بدأت تظهر في مطلع القرن العشرين بعض الافكار والمفاهيم الجغرافية في بريطانيا كانت البداية الصالحة التي تشكلت عليها مدرسة نمت وتطورت وأخذت تعمل على بلورة افكارها ، وطرح مفاهيمها ، وتشر أعمالها ، والتي استمدت اصولها في الاساس من المدرستين الالمانية والفرنسية .

وفي النصف الأول من هذا القرن - وبخاصة في العشرينات - بدأت تتبلور بعض الافكار الجغرافية في الولايات المتحدة الامريكية معتمدة هي الاخرى على الافكار والمفاهيم الالمانية والفرنسية وكذلك البريطانية . وقد شهد القرن العشرين نشاطاً جغرافياً واضحاً في كل من بريطانيا والولايات المتحدة بحيث يمكننا القول بأن مركز الثقل بدأ يتحول من المانيا وفرنسا الى بريطانيا والولايات المتحدة ايذانا بظهور المدرسة الجغرافية الانجلو أمريكية .

ولعل من الانسب قبل عرض افكار هذه المدرسة وتحليلها اعطاء خلفية مختصرة عن التطور الجغرافي في كل من بريطانيا والولايات المتحدة .

لقد انشيء أول كرسي للجغرافيا في بريطانيا بالكلية الجامعية بلندن عام ١٨٣٣ حيث شغله الكابتن «جيمس ماکونوشي» James Machonochie حتى عام ١٨٣٦ . وعلى ما يبدو فإن تدريس الجغرافيا في الجامعات البريطانية بصفة دائمة ومستمرة بدأ بتعيين هلفورد ماكندر Halford . J. Mackinder كاستاذ مساعد في جامعة اكسفورد عام ١٨٨٧ . وفي عام ١٩٠٠ تأسس باكسفورد أول قسم للجغرافيا في بريطانيا (١) .

(1) Holt - Jensen, A. «Geography: Its History and concepts» Harper and Row, London, 1981, P.21.

اما في الولايات المتحدة الامريكية فقد تميزت بظهور اساتذة جامعيين قاموا بتدريس الجغرافيا بصورة فردية دون ان يكون هناك قسم مستقل لها . وكان من بين هؤلاء الاساتذة «وليم موريس ديفز» الذي بدأ التدريس بجامعة هارفارد في عام ١٨٧٨ . وفي عام ١٩٠٣ تأسس في جامعة شيكاغو أول قسم للجغرافيا في الولايات المتحدة الامريكية . وكان ديفز كمعظم معاصريه في البلدان الاخرى جغرافيا طبيعيا ، فقد تأثر بأراء استاذة ريمتهوفن الالماني . وكانت الجغرافيا الطبيعية آنذاك الميدان الرئيسي للدراسة عند غالبية الجغرافيين .

وفي بريطانيا كان لكتاب «توماس هنري هكسلي» Thomas Henry Huxley عن الفيزيوجرافيا Physiography والذي نشر لأول مرة في عام ١٨٧٧ أثر بالغ الاهمية في الجغرافيا البريطانية اذ أحدث تغيرا واضحا في التدريس على جميع المستويات والمراحل التعليمية . فمصطلح فيزيوجرافيا لم يكن حتى ذلك الحين قد ظهر ، ولكن الشائع انذاك كان المفهوم المورفولوجي . ولكن الفيزيوجرافيا تتميز عن المورفولوجيا بالشمولية اذ يمكن تعريفها بأنها وصف الطبيعة ، ويدخل ضمنها الحيوان والنبات والجيولوجيا .

وبحلول القرن العشرين عقدت الزعامة الجغرافية في بريطانيا للسير «هلفورد ماكندر» والذي اليه يرجع الفضل في ارساء قواعد الجغرافية كعلم يدرس في الجامعات البريطانية . وقد دخل ماكندر الجغرافيا من باب علم الاجتماع وتأثر كثيرا بأراء بتريك جيدز Patrick Geddes وأفكاره عن العلاقة بين البيئة والانسان . وعلى الرغم من ان «جيدز» كان عالم نبات بجامعة «دندي» باسكتلنده إلا ان لافكاره وآرائه ابلغ الاثر في ارساء قواعد الجغرافيا الحديثة في بريطانيا بحيث لا يستطيع اي دارس للفكر الجغرافي البريطاني تجاهله . وجميع الجغرافيين البريطانيين المعاصرين الذين أسسوا المدرسة الجغرافية البريطانية امثال «هربرتسون» والدكتور «مل» و«ج سكوت كلتي» Keltie و«تشيشولم» Chisholm و«فليز» مدينون له بالفضل والعرفان .

كان «جيدنز» رائداً في دراسة المجتمع والذي اتخذهُ اطاراً للمسح الاقليمي . وبطبيعة الحال هناك ارتباط قوي بين افكار «جيدنز» والاطار المفهومي عند العالمين الفرنسيين «فردريك لابلاي» و«اليزيه ركلس» . وفي عام ١٩١٤ اسس «جيدنز» رابطة المسح الاقليمي في بريطانيا Regional Survey Association . وتميزت افكار «جيدنز» بأهمية خاصة لعلاقتها الوثيقة بالمفهوم الاقليمي . لقد تبني معادلة «لابلاي» عن المكان والعمل والناس أو المجتمع . وهو يؤمن بأن الفهم الثابت للمجتمع يجب ان يبنى على دراسات ضمن اطار مناطق جغرافية واضحة المعالم ومميزة كأن تكون قطراً أو مدينة (١) . ويجب على الباحث أن يستعين بكراس اودفتر ملاحظات وكاميرا للتسجيل والتصوير فكما ان البيولوجي يجب ان يتوصل الى تعميمات أولية وسريعة معتمداً على خبرته بالطبيعة فإن الاجتماعي يعمل في الميدان ووسيلته الملاحظة العلمية والتسجيل والتعليل .

وهو يهتم بالمظاهر الاجتماعية للمنطقة ، وتلك التي ترتبط بالبيئة الطبيعية . وباختصار فإن جوهر المسح الاقليمي يركز على المكان ، والعمل ، والمجتمع أو البيئة Environment والعمل Function والتنظيم Organization أو الجغرافيا ، والاقتصاد ، والانثروبولوجيا ، وهذا هو محتوى العلم الاجتماعي .

ويمكن تفسير فكرة المكان والعمل والمجتمع على النحو التالي : إن البيئة أو التركيبة الاقليمية تحتوي على ثلاثة ظروف متفاعلة : المكان أو الأرض (ويشمل الموقع والسطح والمناخ والحياة النباتية والموارد الطبيعية) والعمل أو الاقتصاديات ، والمجتمع أو الناس وتراثهم الحضاري . إن المكان يؤثر على المهن أو الاعمال (المكان - العمل) وكذلك يؤثر المكان في الناس (المكان - الناس) . وإن المجتمع يؤثر على

(1) Dickinson, R.E., «Regional Concept , The Anglo - American Leaders» Routledge and Kegan Paul, London 1976, PP.30 -31.

أنماط الاستيطان (المجتمع - المكان). وكذلك يؤثر المجتمع على الأعمال والمهن (المجتمع - العمل). والعمل يؤثر على المجتمع (العمل - المجتمع) وعلى البيئة أيضا (استخدامات الأرض) (العمل - المكان). ان المكان والعمل والمجتمع تمتلك جميعها خصائص مميزة استطاع «جيدز» ربطها بكل من الجغرافيا والاقتصاد والانثروبولوجيا. وفي هذا يقول «جيدز» :

«... ومن هذا الثالث الاصيلي - المكان والعمل والمجتمع - تنشأ اتصالات جديدة وأفكار حديثة. المكان - العمل هو التعدين والنشاط الغابي او الصيد البحري : العمل الذي يمكن اداؤه في أماكن معينة فقط. وشبهها بذلك فإن المكان - المجتمع ينطبق على الاسكيمو والاقوام الرحل مثل الفايكنج : اقوام صاغتهم بالتحديد بيئتهم. إلا ان هناك عمل ثابت ورد فعل فلو أن هولندا صنعت الهولنديين فإنه ليس صدقا القول بأن الهولنديين صنعوا هولندا» (١).

وقد طبقت خطة «جيدز» الميدانية من قبل الجغرافيين البريطانيين ، وكذلك المشتغلين بتخطيط المدن والاقاليم بشكل موسع وبخاصة في فترة ما بين الحربين ، فأجريت الكثير من المسوحات الاقليمية التي كانت اساساً للتخطيط في بريطانيا .

لقد وجدت فكرة المسح الاقليمية صداها في مفهوم الاقليمية والمتمثل في اعادة البناء السياسي . كما انعكست في عمل مكندر الشهير والمسمى «المثل الديمقراطية والحقيقة Democratic Ideals and Reality وعمل «فوست» Fawcett عن «ولايات انجلترا»

. Provinces of England

ويرجع الفضل الى «جيدز» في فكرة نمو المدنية والتي تمر في ست مراحل وهي : اقتصاد القرية Village economy و eopolis و polis و metropolis و megalopolis و tyrannopolis و necropolis . وقد طور هذه الفكرة «لويس

(1) Dickinson, R.E., «Regional Concept» Ibid, P. 32.

مفورد» Lewis Mumford الفيلسوف الاجتماعي الأمريكي المشهور والذي تأثر كثيرا بأفكار جيدز وعمل على نشرها في أمريكا .

وإذا كنا نعتبرنا أفكار جيدز وآرائه مصدر الهام للرغيل الاول من الجغرافيين البريطانيين فإن السير هلفورد ماكندر يعتبر بحق مؤسس المدرسة الجغرافية البريطانية الحديثة . ولد ماكندر في عام ١٨٦١ وتوفي في سنة ١٩٤٧ وتلمذ عليه جيل كامل من الجغرافيين الذين أسهموا في تأسيس المدرسة الجغرافية البريطانية ونموها وتطورها فيما بعد ولذلك يجدر بنا ان نعرض لاهم أفكار ماكندر وآرائه في الجغرافيا .

اعتبر ماكندر الجغرافيا كالجسر يصل الفجوة الكبرى بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية ، وبين كل من التاريخ والجولوجيا . واستعان بهذه الفكرة في تفسير شئون العالم سياسيا . وصاغ في عام ١٩٠٤ فكرة « التمحور الجغرافي للتاريخ » geographical pivot of history ، والتي تقول بأن الحدث التاريخي يتخذ من المكان الجغرافي محورا له ، ولذلك فإن التاريخ لا يفهم ولا يحلل إلا من خلال الجغرافيا . وإلى ماكندر ايضا تنسب نظرية القاعدة الطبيعية للقوى في العالم the natural seats of power والتي نادى بها قبل نشوب الحرب الروسية - اليابانية بعدة اسابيع فقط . ومن هذه النظرية ظهرت ونمت «منطقة المحور» pivot area أو قلب الارض Heart land في اليابس ، والذي يطلق عليه بالجزيرة العالمية لغلبة الماء على اليابس .

وقد استطاع ماكندر ابتداء بعض المصطلحات التي شاع استخدامها في الجغرافيا وغيرها من العلوم الاجتماعية مثل القوة البشرية man-power ، والدفع الاجتماعي Social momentum والاهتمام المستمر going concern ، والعقدية nodality ، وهو المكان الذي تتلاقى به جميع الطرق وتخترقه .

لقد عبر ماكندر عن افكاره الجغرافية في مقالين القاهما في الجمعية الجغرافية الملكية في عام ١٨٨٧ ، وفي القسم الجغرافي من الرابطة البريطانية لتقدم العلوم . يتساءل في مقاله الاول الذي القاه في الجمعية الملكية البريطانية والذي عنوانه « حول مجال الجغرافيا ومناهجها » بقوله : ما هي الجغرافيا ؟ ثم يجيب : انها العلم الذي

مهمته الاساسية تتبع تفاعل الانسان في المجتمع وبيئته وبحسب التغير الذي يتعرض له مكانيا . ثم يعطي تعريفا بديلا للجغرافيا بقوله : انها العلم الذى يتتبع تنظيم الاشياء على سطح الارض . ويستطرد قائلا بأن البيئة المتغيرة هي وظيفة الجغرافيا الطبيعية وعملها . ومن أقواله في نفس المقال : الجغرافيا كالشجرة التي انقسمت مبكرا الى فرعين كبيرين ولكن اغصانها متداخلة او منسوجة مع بعضها البعض بطريقة لا ينقسم عراها . وبناء عليه ينبغي تدريس الجغرافيا ككل موحد . ثم يقول « ان التمييز الصحيح بين الجيولوجيا والجغرافيا - كما يبدو لي - هو أن الجيولوجي ينظر الى الحاضر الذى قد يفسر الماضي ، اما الجغرافي فينظر الى الماضي الذي قد يفسر الحاضر » (١) .

وفي الخطاب الثاني الذي ألقاه «ماكندر» في القسم الجغرافي من الرابطة البريطانية لتقدم العلوم في عام ١٨٩٥ يبين طريقة معالجته للحقائق الجغرافية ، واسلوب تصنيفها . فهو يرى بأن تلك الحقائق يمكن ان تعالج بطريقتين هما : الطريقة الموضوعية والطريقة الاقليمية . فالأولى تتناول الحقائق الجغرافية وتصنفها الى موضوعات عامة أو ظواهر مثل الانهار والجبال والمدن ونحوه . بينما الثانية تعالج الجغرافيا اقليميا على شكل بلدان أو اقطار (بلدانية) مثل ايطاليا وايرلندا وفرنسا واستراليا ونحوه . وبطبيعة الحال فإن المعالجة الاولى تدخل في نطاق الجغرافيا العامة طالما أنها تدرس نمط معين من الظواهر وانتشارهما في جميع أجزاء الكرة الارضية . اما المعالجة الثانية فاقليمية - كما قلنا - لأنها تدرس جزء معين من الكرة الارضية وتعالج جميع ظواهره . وقد اعطى ماكندر وزنا اكبر واهتماما اكثر للجغرافيا الاقليمية .

وبما لاشك فيه بأن ابرز الجغرافيين المعاصرين للسير هلفورد ماكندر وألمعهم هو «اندرو هربرتسون» Andrew J. Herbertson (١٨٦٥ - ١٩١٥) والذي رغم عمره القصير نسبياً اغنى الفكر الجغرافي البريطاني وأثره ، وترك بصماته واضحة

(1) Dickinson, R.E., «Regional Concept». op.cit., P.89.

وتخرج على يديه جيل من الجغرافيين الذين كان لهم شأن يذكر في انتعاش الجغرافيا البريطانية وتطورها .

ويرتبط اسم «هربرتسون» بفكرة الاقاليم الطبيعية . ففي كتابه الجغرافيا الراقية Senior Geography المنشور في عام ١٩٠٧ أخذ بمبدأ الاقاليم الطبيعية بدلا من الوحدات السياسية . وكان قد نشر فكرة الاقاليم الطبيعية الكبرى في عام ١٩٠٥ واطلق عليها الوحدات الأرقى والتي كانت المحور الرئيسي في تطور المفهوم الاقليمي في بريطانيا .

ويعتقد هربرتسون بأن الجغرافيا تعنى دراسة الرتب أو طبقية البيئات الطبيعية والبشرية ، وأطلق عليها تسميات منها النواحي Localities والمراكز districts والاقاليم regions . ويمكننا ان نلاحظ مدى التشابه بين هذه الافكار وافكار هنتري في المانيا .

وفي مقاله المنشور في عام ١٩٠٥ يهتم «هربرتسون» بالوحدات الاكبر في النظام الطبقي الاقليمي . وهي وحدات تتحدد على اسس عامة وبموجب مقياس عالمي وقد كتب في ذلك ما يلي (١)

في تصنيفنا لهذه الوحدات الاكبر قد نختار هذا العامل أوداك كخاصية مثلما اختار «لينوس» Linnaeus الاعضاء الذكور في تصنيفه للنباتات المزهرة . أو قد نطبق نظاما طبيعيا ونأخذ في الحسبان جميع الاشكال والاصناف . ومن الممكن تقسيم العالم الى اقاليم بنوية واقاليم جبلية ، واقاليم مائية ، واقاليم مناخية ، واقاليم بيولوجية واقاليم انثروبولوجية . . ومثل هذه التقسيمات قيمة ومفيدة للطلاب الذي يدرسها . وهي ايضا هامة وضرورية للجغرافي والذي يجب ان يفحصها بعناية قبل محاولة تحديد الاقاليم الطبيعية الجغرافية . وبما أن البنية والمناخ والبيولوجيا وغيرها في حالات اخرى منسجمة ومتألقة فإن من الممكن عمل تصنيف طبيعي دقيق يخدم الاهداف الجغرافية وذلك بالتركيز على عنصرين أو ثلاثة من العناصر السابقة .

(1) Dickinson, R.E., op.cit., PP.45 - 47.

ومن الناحية العملية أو التطبيقية فإن من الأفضل اختيار العاملين التاليين كمعيار للتقسيم الاقليمي :

- أ - مظاهر السطح كمؤثر للبنية وللعملية التي صاغت الاشكال السطحية لهذه البنية .
- ب - الحياة النباتية الطبيعية كتعبير عن نوعية المناخ والتربة .

وفي الأعمال الجيومورفولوجية الحديثة يكون التركيز على تاريخ أشكال الارض . ومما لاشك فيه بأن هناك محاولات جرت من أجل تصنيفها تصنيفا عاما . وهذا ولاشك في غاية الفائدة لانه أدى الى دقة الملاحظة وحساسيتها . إن رؤية وتفسير أشكال الارض ضروري للجغرافي الذي يجب ان يعرف ويفسر الوحدة الاكثر تعقيدا والتي تكون الارض فيها مجرد هيكل عظمي . وتمشيا مع هدفنا الحالي يكفى تجميع الانماط العديدة من الهياكل العظمية الاقليمية الى انواع هي : السهل والنجد او المصطبة the land والكويستا ، والجبل الالتوائي والمرتفعات التحاتية والتي تشكلت بفعل عوامل النحت المختلفة . وفي تصنيف اشكال الأرض فإنه يجب أن نأخذ المناخ والبنية في الحسبان .

وكذلك ينبغي علينا فحص السطح الذي يعطي اشكال الارض هذه ويمكننا تجميع الانماط الرئيسية للحياة النباتية الى خمس رتب : الغابة والبستان (Park) ، والعشب ، والدغل Scrub ، والصحراء . وعلينا هنا مرة اخرى ان نحسب حسابا للمناخ لأن دوره اكبر واهم من دور التربة في تحديد الاقسام الرئيسة . اما في الاقسام الفرعية حيث يسود مناخ واحد فإن التربة يكون لها المقام الأول .

ومن العناصر المناخية المختلفة تحتل الحرارة والمطراهمية بارزة . فلو نقص أحدها فإن الحياة النباتية تتأثر وتقل ، واذا توفر العاملان معاً تصبح الحياة النباتية مزدهرة .

إن السطح والبنية والحرارة والمطر ، والحياة النباتية يجب ان تؤخذ جميعها في الاعتبار حين تصنيف الاقاليم الطبيعية . فعلى سبيل المثال نجد أن التباين بين

السهل والجبل هوتباين التغير المناخي والنباتي واختلاف التناسق ، وكذلك التباين بين مظاهر السطح المتغير والمتناسق .

وفي جميع فروع الدراسات البشرية يجب ان تؤخذ البيئة في الاعتبار . . . وعلى اية حال يمكن ان نتساءل عن دور الانسان في الاقليم الجغرافي . إنه يعتبر كشيء مفصل أو على الأفضل عامل فعال في وسط سلبي . ولكن لو عومل بهذا الشكل فإن المعالجة تكون غير كاملة . . . هل الانسان محكوم بالوراثة او بالبيئة ؟ إنه متأثر بكليةما وجزء منها .

ويدوان هربرتسون اعطى وزناً اكثر الى دور الوراثة في تكيف الجماعات البشرية في البيئات الطبيعية كما بين ذلك في مقاله الهام الذي نشره قبل وفاته بفترة قصيرة وهو مقال يعكس بوضوح أفكار عصره واسقاطاته المستقبلية وبرامجه في دور الانسان على الارض ، انه يكشف بوضوح الابتعاد عن الافتراضات غير الناضجة للحمية البيئية للدارونية الاجتماعية وفي . هذا يقول :

« البنية والاشكال السطحية للارض هي شواهد تاريخ طويل . . . الاقليم يجب ان يعرف على انه كل مكون من أجزاء مختلفة ، كل جزء له خاصيته ودوره . أن عناصره الاساسية قد لا تتغير ولكن من حيث التاريخ البشري نجد أن سطحه تغير فاندماج فيه بطرق مختلفة . ومن الضروري فهم العناصر الدائمة ومراحل التنمية والتطور الذي مر عليه الاقليم وكذلك امكاناته . انه ليس مجرد بيئة سلبية ، انه مسرح العمل البشري ، انه شيء نشيط يتفاعل مع الانسان تفاعلاً قوياً . »

ولعل جون فردريك أنستد ، (١٨٧٦ - ١٩٦٥) J.F. Unstead ابرز الجغرافيين الذين ساروا على نهج ماكندر وهربرتسون ، والالتزام بالخط الاقليمي في الدراسات الجغرافية .

ويدولنا بوضوح مدى تغلب الدراسات الاقليمية عند جون هربرت فليور (١٨٧٧ - ١٩٦٩) J.H. Fleure ، وبخاصة في مقاله الشهير عن فكرة الاقاليم البشرية والذي نشره في الحوليات الجغرافية الفرنسية في عام ١٩١٧ Annales de geographie ، وقال فيه بأن الجماعات البشرية تعيش في بيئات يمكن ان

نطلق عليها بأقاليم الجهد effort ، وأقاليم الشدة difficulty ، وأقاليم الشدة الدائمة Lasting difficulty ، وأقاليم الضعف debilitation ، وأقاليم الزيادة increment .

وبنهاية النصف الاول من هذا القرن بدأ الجغرافيون البريطانيون يتجهون نحج الجغرافيا المنهجية ، وبخاصة في البشرية وبدأت تظهر مواضيع جغرافية لم تكن مطروقة من قبل مثل جغرافية الحضر ، وجغرافية الاستخدام الريفي ، كما بدىء باعادة صياغة الجغرافيا الاقتصادية على ضوء التحليلات الموقعية لكل من الفرد فيبر Weber واوجست لوش Losch ، وظهور الجغرافيا التطبيقية والتي تؤكد على المظاهر الديناميكية للمشاكل في مناطق معينة ومحاولة عمل اسقاطات مستقبلية لكيفية حل هذه المشاكل . ويلاحظ ايضا تطور جغرافية المياه وتقدمها Hydrogeography وكذلك الجغرافيا الحيوية Biogeography والجغرافيا الطبية .

ومن الدراسات الجغرافية الرائده كتاب التغيرات الاقليمية في بريطانيا Regional Variations in Britain من تأليف «كوتس» B.E.Coates و«روسترون» E.M.Rawstron (١٩٧١) . فهذا الكتاب وضع اسسا جديدة في جغرافية الاقتصاد الاجتماعي . وهو بسبب منهجه الموضوعي اصبح يحظى بأهمية كبيرة عند الجغرافيين والعلماء الاجتماعيين(١) .

ومنذ الخمسينات من هذا القرن بدأت الجغرافيا في بريطانيا تشهد ثورة كمية نمت وانتعشت في الستينات . وقد بدأت هذه الحركة في السويد والولايات المتحدة الامريكية ثم انتقلت الى بريطانيا . وكما يقول الاستاذ «بلشين» Balchin ان على الجغرافي إتقان الوصف والتفسير literacy ، وعمل الخرائط وتحليلها graphicy ، واستخدام الارقام احصائيا ورياضيا numeracy .

(1) Edwards, K.C., «Sixty Years after Herbertson : The advance of Geography as a Spatial Science,» Geography vol.59, Part 1, January 1974, P.4.

(2) Balchin, W.G. (ed.) «Geography» Routledge and Kegan Paul, London, 1970, PP. 1-11.

وقد استدعى تطبيق الاساليب الكمية ابتكار الانظمة والنماذج وتطبيقها والاستفادة منها في عمل البحوث . ويرجع الفضل الى كل من تشورلي R.J.Chorely و «هاجيت» P.Haggett في شرح النماذج وطريقة استخدامها في كتابها المشهور «النماذج في الجغرافيا» Models in geography ، والذي اعتبر بمثابة انجيل الجغرافيا المعاصرة . وينبغي أن نلاحظ بأن الجغرافيا الحديثة بدأت في مطلع هذا القرن على يد «مكندر» في جامعة اكسفورد ، اما الجغرافيا البريطانية المعاصرة فقد ظهرت في جامعة كمبرج .

ومما لاشك فيه بأن نشر كتاب «حدود التعليم الجغرافي» frontiers of Geographical Teaching حمل لنا افكارا معاصرة كان لها آثارها الايجابية على المسيرة الجغرافية . ويبدو ان كثيرا من الآراء والافكار هذه مستمدة من كتاب S.Toulmin المسمى «فلسفة العلم» والمنشور في عام ١٩٥٣ ، وكذلك من الداروينيين المتأخرين امثال «بوبر» K.Popper ، والذي نشر كتابه «منطق الكشف العلمي» في عام ١٩٦٥ .

وعلى اية حال فإن كتاب «حدود التعليم الجغرافي» مهد الطريق الى الامام وباسلوب ثوري وغايته التركيز على أن الجغرافيا علم مكاني وتستطيع السير مع العلوم الطبيعية ، وان تشارك في الكشف العلمي والتطبيق بدلا من أن تظل مجرد مستوعب لمعلومات غيرها . ويحاول الكتاب وضع الجغرافيا في طليعة العلوم الاجتماعية عن طريق ما ينبغي أن تقوم به من مساهمات جادة وأصيلة .

وفي الولايات المتحدة الامريكية كان «وليم موريس ديفز» بجامعة هارفارد المؤسس الحقيقي للجغرافيا الحديثة في العالم الجديد . وكانت المس «سمبل» معاصرة له والفت كتابين عن جغرافية الانسان هما : التاريخ الامريكي وظروفه الجغرافية في عام ١٩٠٣ . وكتاب تأثيرات البيئة الجغرافية في سنة ١٩١١ .

ويعود الفضل الى «ديفز» في تأسيس رابطة الجغرافيين الامريكيين في عام ١٩٠٤ والتي اخذت تعمل على رفع مستوى الجغرافيا في الولايات المتحدة الامريكية .

لقد اعتبر ديفز الدورة التحاتية النموذج المفضل الذي يمكن الاستعانة به في دراسة اشكال الارض . ففي مقال له في عام ١٩٢٤ بعنوان « تقدم الجغرافيا في الولايات المتحدة » قال بأن « دراسة اشكال الارض من مفهوم الدورة التحاتية هي نموذج عام يمكن ان نضع فيه الاشكال المتنوعة اللانهائية (١) .

ويريد ديفز من قوله هذا توجيه الاهتمام الى الحقائق المرئية للاندسكيب الحالي بدلا من تحويل الانتباه للظروف غير المرئية ، وعمليات الماضي - والتي هي بمثابة تحريات واستفسارات تدخل في ميدان علم الجيولوجيا .

وكان يسعى «ديفز» الى الوصف التفسيري للاشكال الحالية للارض ، اما الظروف الجيولوجية الماضية فيجب اختصارها الى الحد الأدنى ، ذلك ، ان الهدف الجغرافي فهم اشكال الارض .

ويميز «ديفز» بين الجيولوجيا والجغرافيا فيقول في مقالة له بعنوان تأملات في الجغرافيا A Retrospect of Geography في عام ١٩٣٢ (٢) .

« إن اشكال الارض يمكن دراستها من وجهة النظر الجيولوجية اذا رغب المرء تتبع تطورها التاريخي ، ولكن يمكن أن تدرس من وجهة النظر الجغرافية اذا أراد المرء وصف مظهرها الحالي . »

لقد كان «ديفز» في الاساس جيولوجيا ، ولكنه تحول في تسعينات القرن الماضي الى ميدان الجغرافيا . وقد سعى الى تكامل عنصري الطبيعة والانسان بعد فترة سادت فيها الازدواجية بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية . واستعان «ديفز» بمنهج «دارون» في التطور والذي اعتبر حقائق الطبيعة والانسان قائمة وموجودة وترتبطها علامات منسجمة على شكل سلسلة متصلة من السبب والنتيجة . وقام «ديفز» بتصنيف الحقائق البشرية مستندا في ذلك على تصنيف الحقائق الطبيعية للارض . ويقول بأن المظاهر الطبيعية للارض كانت تدرس من قبل الجغرافيين

(1) Dickinson, R.E., «Regional Concept» op.cit., P.196.

(2) Ibid., P.197.

الطبيعيين من حيث الاصل والعملية الاجرائية . وبناء عليه فإن اشكال الارض يجب دراستها جغرافيا على ضوء الاستجابات الانسانية والضوابط البشرية . وكان يطلق على الحقائق البشرية على سطح الارض مصطلح «انتوجرافيا» Ontography ، أما حقائق الارض الطبيعية فيطلق عليها «فيزيوجرافيا» Physiography

ويرى «ديفز» بأن الجغرافيا الاقليمية ترمي الى وصف العناصر الجغرافية بكلياتها ، وكما توجد مع بعضها من حيث ارتباطاتها الطبيعية وعلاقاتها . وهنا نجد تشابها بين آراء «ديفز» في عام ١٩١٥ وآراء «ريختهوفن» في عام ١٨٨٣ .

وقد أصر «ديفز» على أن الوصف الاقليمي يجب أن يكون متماثلا - أي جميع المظاهر وهي اليابس والمناخ والنبات والحيوان والانسان - وينبغي ان تنال هذه العناصر كلها نفس الاهتمام دون تركيز على واحد منها .

ويرى ديفز بأن الجغرافيا تدرس تفرد مناطق سطح الارض على اختلاف المستويات بدءاً بالمحليات Localities ، ومروراً بمناطق العالم الرئيسية وانتهاء بالعالم . والاقاليم المحلية يمكن تسميتها بالاقاليم الخاصة وهي فريدة اي لا تتكرر . اما مناطق العالم الرئيسية فهي عامة وليست فريدة . والاقليم ليس كما يراه البعض اطارا ارضيا أو مساحة من الأرض محدده بشكل اعتباطي ، ولكنه ارتباط الظواهر التي يسعى المرء الى كشفها ووصفها وتفسيرها .

والوصف - كما يتصوره ديفز - له مظهرين يتطلب كلاهما منهجا منظما شديدا الدقة ؛ أحدهما وصف بحث والآخر وصف تفسيري يتم بمساعدة العلوم المساعدة . والتمييز بين المظهرين - سواء كان ديفز مدركا لذلك ام لا - هو بالتحديد نفس تمييز ريختهوفن بين نمطي الوصف المكاني وهما «الكوروجرافيا» او الوصف الاقليمي Chorographical «والكورولوجي» او العلم الاقليمي Chorological ، وان الوصف الكوروجرافي قديم جدا منذ عهد «سترابو» Strabo . أما العلم الاقليمي فهو نتاج تطور المعرفة الحديثة . ويبدو ان كلا المصطلحين هذين

يظهران في مضطلحات الجغرافيين الامريكيين مثل « جيمس » James وتريوارثا Trewartha و « فنش » Finch في الثلاثينات من هذا القرن .
واذا كنا قد عرضنا باختصار لاهم آراء ديفز عن الدراسة العامة لاشكال الارض فإن من الانسب معرفة افكاره عن محتوى الجغرافيا واغراضها ومناهجها . إن آراء ديفز الجغرافية في مطلع القرن العشرين وكما قال في الجمعية الجغرافية الملكية في عام ١٩٠٣ تعكس فلسفة التطور الدارونية لعصره . ولكن افكاره في أيامه الاخيرة وبعد تقاعده من العمل اصبحت في مجملها ايكولوجية واضحة . وقد أثرت افكاره هذه بشكل كثير على آراء خلفائه واعمالهم . ويتضمن الاسلوب الايكولوجي الذي تحول اليه ديفز امورا كثيرة فهو يتطلب من الجغرافي بأن يدرس اشكال الحياة على سطح الارض وتكيفها بحسب الموقع الاساسي ، ولذلك يمكن القول بأن موقف ديفز وافكاره الجغرافية مرت بمرحلتين كانت الاولى حتمية والثانية ايكولوجية .

ومنذ منتصف العشرينات شهدت الجغرافيا تقدما تجسم في تأسيس برامج للدراسات الدنيا والعليا بجامعة شيكاغو منذ عام ١٩٠٣ . وفي هذه الفترة ظهرت مقالة « باروز » الشهيرة عن « الجغرافيا كبيئة بشرية » أو الايكولوجيا البشرية ، وكذلك كراس « ساور » عن مورفولوجية اللاندسكيپ ، وكان لهما دور في تشجيع وتوجيه البحث والتدريس فيما بين الحريين .

وفي عام ١٩٣٩ ظهرت مرحلة جديدة على اثر قيام رابطة الجغرافيين الامريكان بنشر كتاب « رتشارد هارتشورن » عن طبيعة الجغرافيا . وكان لهذا الكتاب انعكاساته العميقة وآثاره البعيدة على الجغرافيا في فترة ما بعد الحرب في اوروبا وامريكا . ويشهد الكتاب تحولا من المفهوم البيئي الى الاقليمي ذلك أن هارتشورن من اكثر المتحمسين للاقليمية . وقد بلغت هذه المرحلة الاوج بظهور كتاب

American Geography : Inventory and Prospects في عام ١٩٥٤ ، واعيد طبعه في عام ١٩٥٦ . واشرف على تحريره كل من « برستن جيمس P.E.James » و « جونز »

C.F. Jones ، ويحتوى على تجميع لاهم الافكار الجغرافية السائدة في الولايات المتحدة ، وعرض وتقييم لمساهمات الاجيال الثلاثة للجغرافيين الامريكيين .

ويبدولنا بأن الجغرافيين الامريكيين اعطوا بعد الحرب العالمية الثانية اهتماماً اكثر الى مجال الجغرافيا الاقليمية واهدافها من أجل التوصل الى تحديد تقريبي منطقي لعلاقاتها بالعلوم الطبيعية والاجتماعية . منذ الحرب اصبح هناك تحول كبير نحو التركيز على الاطار المفهومي للجغرافيا وانعكس ذلك على اختيار المواضيع الجغرافية مما ادى فيما بعد الى الانصراف عن الاقليمية التقليدية ، واتجهوا الى المنهجية ، واختاروا مواضيعاً تحتاج الى التعمق ، وتتطلب التخصص ، ويكسب الجغرافي بموجبها مهارة يتمكن بها من منافسة زملائه في الاختصاصات العلمية الاخرى . ولذلك لم تعد الجغرافيا مجرد تجميع البيانات والمعلومات والاهتمام بكلية المكان ، وانما اصبح التركيز على التخصص في الدراسة المنهجية لظاهرة من الظواهر .

ومن الامور الملفتة للنظر أن تدريب الجغرافيين اصبح يهدف الى دراسة الانسان على سطح الارض ، اي نظام الانسان والبيئة ، أما البيئة الطبيعية فندرس اليوم من حيث اهميتها للانسان . فالجيمورفولوجيا وايكولوجية النبات والمناخ لم تعد جميعها تدرس كغايات في حد ذاتها وانما من حيث اهميتها للاستيطان البشرى أو بعبارة اخرى العلاقة بين الانسان والارض .

وبناء على ما تقدم فإن الجغرافيين الامريكيين المعاصرين تحولوا اليوم عن منهج ديفز واتباعه ولم يعد المطلوب دراسة عملية تطور اشكال الارض فقط او المناخ والنبات كغايات في حد ذاتها ، وانما المطلوب تقييم كل هذه الامور من حيث اهميتها للانسان وحياته . وهذا يعني - على سبيل المثال - الاهتمام بالمحافظة على البيئة وحسن ادارة استغلال الموارد ، وتقييم للمنحدرات الارضية من حيث نحت التربة أو ملاءمتها للزراعة . والمشكلة في كل حالة تتحدد بالاهداف والمعدات التقنية ، وتقاليدها المجموعة البشرية التي تستوطن المنطقة . اذن اصبح على الجغرافي التعمق في الجيمورفولوجيا حتى يستطيع تقييم اهمية الارض للانسان بشكل اكثر فاعلية .

ولعل نمو مفهوم تحليل الانظمة وتطبيقه في العلوم البشرية تطلب اطاراً مفهوماً اكثر وضوحاً وبخاصة للجغرافيا فكثيراً من الكلمات والمصطلحات

الايكولوجية والتي كانت تستخدم في الماضي بشكل غير محدد تماماً هي اليوم في حاجة الى تعريف وتحديد .

ان الجغرافيا الامريكية كما يرى «اكرمان» Ackerman تهتم بنوع معين من تحليل الانظمة . إنها انظمة مكانية متكامل حول ما يسمي بمركب ومجمع علاقات الانسان - الارض . وبناء عليه فإن ميدان الجغرافيا ايكولوجي وان الارض الطبيعية يجب ان تقيم من وجهة النظر هذه . والجغرافيا تهتم في الاساس بدراسة . الانظمة البيئية ecosystems . وهناك اتجاه آخر اصبح واضحاً في الجغرافيا الامريكية المعاصرة وهو تطبيق الاساليب الاحصائية والذي ظهر بشكل ملفت للنظر منذ منتصف الخمسينات وبخاصة في الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض الاقطار الاوروبية بزعماء «هيجرستراند» Hagerstrand بجامعة لند Lund بالسويد . وقد كانت لآراء «هيجرستراند» وافكاره تأثيراً كبيراً على الجغرافيين الامريكيين مما ادى الى حدوث تحول جغرافي بارز ونقله ظاهرة والتي تمثلت في كتابات «اكرمان» Ackerman و«بنجي» Bunge و«شيفر» Schaefer و«بري» Berry ، اما في بريطانيا فقد قاد الاتجاه الجديد كل من هاجيت Haggett و«تشورلي» Chorley .

ويتميز هذا الاتجاه الجديد باتباع الاساليب الاحصائية أو الكمية كما يهتم بتحليل الانظمة المكانية وبذلك فإنها تكشف عن مظهرين هامين : اولهما ان هناك تحولاً واضحاً وتركيزاً نحو سلوك المجموعة ينصب على تقييم العلاقات بين الانسان والبيئة . ويطلق على هذا المسلك الادراك الحسي المكاني Spatial Perception . وثانيهما ان هناك اهتمام بالمشاكل الاجتماعية الجارية ، وكذلك بمدى الفائدة العملية او القيمة النفعية للبحث . ويبدوان الجغرافيين الامريكيين استطاعوا الاتيان بأطر ومهارات جديدة ولكنهم لم يطوروا جغرافيا جديدة على الرغم من أن ميداناً هاماً وجديداً ظهر ، ونعني به العلم الاقليمي الذي نشأ بين أحضان الجغرافيا ، ثم أخذ يبعد عنها ، وان معظم القائمين عليه اليوم غير جغرافيين وأغلبهم اقتصاديين .

صدر من هذه النشرة

- ١ - زراعة الواحة في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية
ترجمة الدكتور زين الدين عبد المقصود
- ٢ - اسس البحث الجغرفلوجي مع الاهتمام بالوسائل العملية المناسبة للبيئة العربية
بقلم : الدكتور طه محمد جاد والدكتور عبد الله الغنيم
- ٣ - توطين البدو في المملكة العربية السعودية (المهجر)
ترجمة : الدكتور عبد الاله ابو عياش
- ٤ - اثر التصحر كما تظهره الخرائط
ترجمة : الدكتور علي علي البنا
- ٥ - سكان ايران ، دراسة في التغير الديموجرافي
ترجمة : الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي
- ٦ - القبائل والسياسة في شرقي شبه الجزيرة العربية
ترجمة : حسين علي اللبودي
- ٧ - سكان دولة الامارات العربية المتحدة
بقلم : الدكتورة أمل يوسف العذبي الصباح
- ٨ - السياسات السكانية في افريقية
ترجمة : أ.د. محمد عبد الغني سعودي
- ٩ - اثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب
أ.د. محمد رشيد الفيل
- ١٠ - نحو تصنيف مورفولوجي لمنخفضات الصحراء
بقلم : دكتور صلاح الدين بحيري
- ١١ - مواد السطح في البحرين - مسح المصادر واهميته التطبيقية للتخطيط الاقليمي
ترجمة : أ.د. حسن طه نجم
- ١٢ - الطاقة والمناخ
ترجمة الدكتور زين الدين عبد المقصود
- ١٣ - التطبيق الهندسي للخرائط الجيومورفولوجي
بقلم : د. يحيى عيسى فرحان
- ١٤ - بعض عواقب الهجرة على التنمية الاقتصادية الريفية في الجمهورية العربية اليمنية
ترجمة : د. عبد الاله ابو عياش
- ١٥ - البعثة العلمية الى شبه جزيرة مسندم (شمال عمان)
ترجمة : أ.د. محمود طه ابو العلا
- ١٦ - نظام النقل العام والخدمات الترويجية في الكويت
أستاذ عبد الوهاب الهارون
- ١٧ - مدن الشرق الاوسط
ترجمة : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي
- ١٨ - تجارة الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث الهجريين
بقلم : د. عطية القوصي

- ١٩ - نظرات في الفكر الجغرافي الحديث بقلم : د. طه محمد جاد
- ٢٠ - القوة البحرية السوفيتية ترجمة : أ.د. محمد عبد الغني سعودي
- ٢١ - مشكلة التصحر في العالم الاسلامي بقلم : د. زين الدين عبد المقصود
- ٢٢ - علم الجغرافيا دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي بقلم : د. محمد الفراء
- ٢٣ - جغرافية الرفاه الاجتماعي عن : منهج جديد في الجغرافيا البشرية . تأليف : دزمز سميث تعريب : د. شاكر خصباك
- ٢٤ - مكان الخليج العربي في حضارة الشرق الأدنى القديم . تأليف : د. سليمان سعدون البدر
- ٢٥ - الاستعمار من بعد في الشرق الاوسط تأليف : د.ر. هاريس - ترجمة : أ.د. علي علي البنا
- ٢٦ - الارتباط المكاني تطوره وبرمجته وجوانب من تطبيقه تأليف : د. حرب عبد القادر الخنيطي
- ٢٧ - التطوير الحضري واستراتيجيات التخطيط في الكويت د. عبد الاله أبو عياش
- ٢٨ - دراسة تحليلية لخمس مجموعات من الاسر وفقا لتجربتهم في الهجرة بقلم : د. عبد العزيز آل الشيخ - ترجمة : أ.د. محمد عبد الرحمن الشرنوبى
- ٢٩ - ضبط النسل أبعاده وآثاره الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية بقلم : د. حسن عبد القادر صالح
- ٣٠ - الموارد في عالم متغير (وجهة نظر جغرافية) بقلم : أ.د. حسن طه نجم
- ٣١ - الجغرافيا بين العلم التطبيقي والوظيفة الاجتماعية بقلم : أ.د. محمد عبد الرحمن الشرنوبى
- ٣٢ - الخصائص الجيومورفولوجية لنهر السهل الفيضي بقلم : د. طه محمد جاد
- ٣٣ - التخطيط لمدن التنمية في الكويت بقلم : د. عبد الإله أبو عياش
- ٣٤ - توطن صناعة الاسمدة الكيماوية في الوطن العربي ومستقبلها د. محمد أزهر السماك
- ٣٥ - التابع الطباقى د. احمد مختار ابو خضرا
- ٣٦ - جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط د. عبد العال الشامي
- ٣٧ - علم الريافة عند العرب د. محمد عيسى صالحية
- ٣٨ - الهجرة اليمنية الى امريكا نموذج من دويتريت بالولايات المتحدة ترجمة : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبى
- ٣٩ - المرحلة الثالثة من الادارة الدولية لمائية نهر النيل ترجمة : د. زين الدين عبد المقصود غنيمي
- ٤٠ - الصناعات البتروكيماوية في العالم العربي وامكانيات التنسيق بينها د. محمد عبد المجيد عامر

٤١ - التغيرات المناخية وانتاج الغذاء

بقلم : هـ. هـ. لامب ترجمة : طه محمد جاد

٤٢ - النظام الايكولوجي وجهة نظر جغرافية

بقلم الدكتور زين الدين عبد المقصود

٤٣ - الخصائص الشكلية ودلالاتها الجيومورفولوجية

د. حسن رمضان سلامة

٤٤ - المدينة والخدمات الهاتفية

ترجمة وتعليق : الدكتور محمد اسماعيل الشيخ

٤٥ - نبذة عن تطور جزيرة بوبيان الكويتية في اواخر عصر الهولوسين

الدكتورة طيبة عبد المحسن العصفور ترجمة دكتور زين الدين عبد المقصود غنيمي

٤٦ - التوزيع المكاني لاحتياطات النقد العالمية

بقلم - ادوارد ليهي وجوزيف هل ترجمة : أ.د. حسن طه نجم

٤٧ - خريطة مورفولوجية لاقليم خور العديد: شبه جزيرة قطر.

د. نبيل سيد امبابي

٤٨ - مشاهدات جغرافية في غربي الجزيرة العربية.

بقلم: أ.د. يوسف أبو الحجاج